الليمون

قصص من اليابان والصين

جمع وترجمة أحمد المديني

الليمون

قصص من اليابان والصين

جمع وترجمة
أحمد المديني

هنـــداوي

الليمون

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٠ ٣٤٠٩ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الجاوية في تواريخ متعددة.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٨٩.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الدكتور أحمد المديني.

المحتويات

تقديم	٧
قصص يابانية	١٣
حلم في بلد الرجال الصغار	١٥
الليمون	١٩
الضفدعة	٢٥
في جوهر الكائن	٢٩
حُلم جنديٍّ ما	٣٩
قصص صينية	٤٧
الجحيم والمَطهَر	٤٩
سيد السعادة والثروة	٥٧
اسم تلك الفتاة أو حكاية بيجو	٦٣
رقصةُ السيوف في السُّور الأخضر	٧١

تقديم

يتضمَّن هذا الكتاب مجموعةً من النصوص الحكائية-السردية، تنتمي إلى الفضاء الأدبي الآسيوي، وتمتلك مقومات في فن القص والتخيُّل تختص بها دون غيرها.

وتنقسم النصوص التي نضعها بين يدي القارئ قسمَين، سواء من حيث انتماؤها أم زمنيَّتها وما تحوزه من خصائص. القسم الأول يتضمَّن قصصًا صينيَّة ترجع إلى بدايات ما يُسمَّى بعهدِ مينغ، بين القرنَين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديَّين، وقد عرفت انتشارًا واسعًا في كوريا واليابان حيث نقَّحت وقلَّدت وأصبحت لها صيغٌ متعدِّدة بلغت أوروبا أيضًا. ورغم هذا، فلا أحد يعرف اسمي «كويو» و«لي زن» اللذين ألَّفا هذه القصص المعروفة بـ «حكايات في ضوء الشمعدان» ومنذ عقودٍ محدودة فقط أُعيد لـ «الحكايات» اعتبارها في الأدب الصيني، بما تشهد به من إتقان واكتمال في النوع، وتحصيل لعناصر المحكي العجائبي. والواقع أنَّها مرَّت بفتراتٍ طويلة لا تقلُّ في البُعد عن القرن الخامس، إلى أن بلغَت الحذق والكمال في العهد المشار إليه.

وفي اللغات الأوروبية، يعود الفضل الأول في الكشف عن «الحكايات» سنة ١٩٥٨م إلى الباحث الألماني هربرت فرانك، المختص باللغة الصينية، وإبراز قيمتها بتخصيص دراسة عن المؤلف «كويو»، في وقت لم تكُن هناك أيُّ طبعة صالحةً من النصوص الأصلية. وفي سنة ١٩٥٩م، ظهرتْ في زيوريخ طبعةٌ أُولى لها ... بمثابة أنطولوجية تضمُّ اثنتي عشرة قصة موزَّعة بين «كويو» و«لي زن». وتأخَّر العهد بعد ذلك؛ لتظهر لها ترجمةٌ بالإنجليزية. وفي فرنسا، صدرتْ مُترجَمةً عن دار غاليمار، باريس، في آب ١٩٨٦م. وقام بالترجمة جاك دارس، وراجعها تشانغ فوجوي، وعنها ننقل نحن عملنا هذا إلى قرَّاء العربية.

لقد زكَّت اختيارَنا هذه النصوصَ عدَّةُ أسباب نجعلها في الآتي:

- التميز الذي تنفرد به، من حيث إنها تُطلعنا على نموذج من الأدب المحكيِّ العريق لشعبٍ ذي تقاليد حضارية باذخة؛ فتُبرز لنا أنماطًا من سلوكه وتقلُّبات حياته، ونماذج مكثَّفة من أوضاعه، وصورًا فذَّة لأشكال التخييل لديه؛ فيتأتَّى لنا، من هذا، ضربان من التصوُّر: الأول تاريخيٌّ-اجتماعي، والثاني وجدانيٌّ-جمالي.
- أن العراقة الحضارية للنصِّ تسندها بل ترفع من شأنها عراقةٌ أخرى في ابتداع أصول المحكي والسيطرة على مساره وتشخيص عوالمه، وهذا بصيغة جنسٍ أدبي يلزمنا لدى قراءة نماذجه إدراك زمنيَّته، والنظر إليه بمطلق الاستقلالية عن الأجناس السردية الحديثة، والقصة القصيرة منها بخاصَّة، بل إنه محكيٌّ يفرض علينا أن نُعيد تقويم كثير من الأحكام والتصنيفات بشأن نشأة الأجناس الأدبية وتطوُّرها. إن النثر والشعر هنا، على سبيل المثال، صنوان أو يتبادلان الأدوار بانسجامٍ بديع، كما أن حِيازة خصائص فريدة في السرد تُلغي مركزية الأجناس أو خضوعها لأنساق متماثلة.
- مع هذه النصوص، وأخرى مماثلة لها في الأدب الصيني القديم، تستطيع الحكاية تبعًا لَمَا سبق، أن تستقلَّ بنفسها وأدواتها وفضائها وتخيُّلها، ويكون من المهمِّ جدًّا الاطِّلاع على النوع، كيف تجنس؟ وحتمًا كيف نفذ تأثيره في وقتٍ لاحق؟ ممَّا نستطيع أن نعثر عليه حين نطَّلع على النصوص القصصية الحديثة في الآداب الآسيوية، لقد كان للحكاية إذن زمنها الذي أنتجها، ونضَّدها في سلك الإبداع الإنساني.
- يُضاف إلى ما سبق أن هناك وازعًا آخَر للاختيار قرين بالمزاج الفنِّي الشخصي، ونعني تحديدًا القدرة التي تمتلكها ... الحكايات في التوليف العجيب بين ما هو واقعي، حذافيري وخام، وما هو مثيولوجي، تخيُّلي وعجائبي، حتى إن كلَّ واحد من العنصرَين يكتسب خصائص الثاني ويتفاعل بها أخذًا وعطاء، فلا نحسُّ بأيِّ نقلةٍ تعسُّفية أو تطابُقٍ مفتعَل، وهذا إلى الحدِّ الذي نُدرك فيه أنَّ البنية التكوينية لـ «الحكاية» لا تتمُّ ويحصل فيها الاتساق والتناغم إلا إذا تضافر فيها ما هو واقعي وما هو ميثولوجي تخييلي. وإذا كانت القراءة السوسيولوجية لهذا الضرب من الكتابة قابلةً لأنْ تجنح بسرعة نحو تأويلِ تركيب هذه البنية بالمعطيات الثقافية

والاجتماعية لمجتمعٍ بعينه؛ فإننا نحسُّ بأنَّ تأويلًا مماثلًا، يظلُّ قاصدًا ويتغافل عن الكشف الفني الخاص بالنصوص وحنكة واضعيها، أي عن قدرة تجميع المعطيات نفسها وإعادة تكوينها على النسق الفني الذي هي عليه، والذي يُبهرنا، ويخصب بتخييله مخيِّلتنا، وينبِّهنا إلى أن «الحكايات» سبَّاقةٌ بأزمنةٍ طويلة إلى الإبداع الحديث، في الغرب والشرق معًا، الذي ارتاد آفاق الغرابة، وكسر قاعدة فجاجة الواقع وثباته الظاهري.

القسم الثاني من هذه المجموعة يرتبط، خلافًا لسابقه، بقِصصٍ من الحاضر، تنضوي في جنس القصة القصيرة، وتنتمي إلى الأدب الياباني الحديث والمعاصر، ونحن نعني ونعي جيدًا هذا الاختيار الذي نقدِّر أنه سيساعدنا في تعرُّف مستويَين من الإبداع الحكائي. أجل، يباعد بينهما الزمن، وإن تقاربت مسافة الجغرافيا، ويتمايزان تمايزًا ملحوظًا في طُرق التناول ولكن على الرغم من هذا يحافظان، أو قُل إن الثاني منهما يتمسك بقرابته إلى الأول، وإذ يحتفل بإرهافاته الفنيَّة المتميزة، تصله أكثر من آصِرةٍ بتراث الماضي الحكائي، ويستمدُّ بها بعض نسغه وخيوطًا كثيرة من نسيج تكوينه. ومع هذا الاقتراب تظلُّ مسافة البُعد قائمة، وهي من طبيعة الجنس الأدبي نفسه حين يتبلور ويثبت، هذه المرة، بلا لبْسٍ قصةً قصيرة تمتصُّ عناصر التطور الحضري وتشخِّصها، وتحتفل بمعطيات أوضاعٍ مدينيَّة؛ لتجعلها ناطقة، جهارًا أو إضمارًا، بأكثر ما في العصر — ضمن فضاءٍ وزمنيَّة محدَّدة — من وجوه الصراع والمفارقة والانفلاتات الرامزة والعابرة، ولكن أيضًا بما هو جوهري في الإنسان من حسٍّ مأساوي يخترق القناعات العادية ومكونات البداهة الزائفة أو القشرية.

بهذه الأجواء وبغيرها تنتج القصة القصيرة في الأدب الياباني الحديث نَصَّها مستفيدةً من كلِّ التقنيات والجماليات التي ادَّخرها النوع الأدبي على امتداد مراحل تطوُّره في الآداب الغربية والأنغلوسكسونية، بمعنى أن القصة القصيرة اليابانية نِتاج من كلِّ إبداعي، وكثير من سِيَر القصَّاصين اليابانيين تُشير إمَّا إلى دراستهم الأدبَين الفرنسي والإنجليزي وإمَّا إلى تأثُّرهم بذخيرة الأدب العالمي. وهو أمر طبيعي ومحمود، على نحو أهَّل المحكي الياباني للمقومات المطلوبة للنوع، ودون وجود تباعُدٍ سحيق، كما هو الشأن بالنسبة إلى أدبنا العربي الحديث.

بَيدَ أنَّ الإبداع السردي الياباني، والقصة القصيرة هنا تخصيصًا، يكمن في التفرُّد ضمنَ الشمول، والتميُّز وسطَ العموم. خاصيتان ليس مرجعهما ما يحمله كلُّ نصٍّ أصيل

من إنطاقٍ لعناصر البيئة المحلية وجملة المشاعر والأزمات المعبِّرة عن شرائح بشرية بعينها حَسْب، بل إلى هذا، وبهذا أيضًا، نسقٌ من التناول يدمج ما هو فني صِرف — أي ما يتَّصل بتقنية الكتابة، وأسلوبها، وصناعة النص وصياغته المعمارية — فيما هو من جنس التخييل الخاص لأدب أمَّة بعينها، وقد تفاعلتْ فيه روافد الماضي (التراث) الحكائية والانبجاسات التي لا تتوقف مخيِّلة الفنَّان القاصِّ عن إنجابها، وهو ما يُولِّد، في النهاية رؤيةً لواقع مُعطًى، ورؤيةً فنية ودلالية تمنح المحكي الياباني، قصته القصيرة، هويتها ونكهتها المتفرِّدة؛ فتكون عطاء يعاضد العطاء العالمي ويُثريه.

إنَّ علاقة الواقعي بالمتخيَّل وآفاق الغرابة، لتكون في الكتابة السردية اليابانية إحدى أبرز الخصائص التي حفزتْنا إلى اختيار عدد من النصوص؛ إذ برز لنا بكامل الوضوح كيف أن الكاتب الياباني قادرٌ على صوغ التركيب وإنتاج البنية الخاصة لأدبه وعلى تمثُّل روافد الماضي والروحية العميقة لأمَّته ضمن استيعاب مكوِّنات الحاضر وشخوص الزمن المتغيِّر، ولكنَّ المندرج في سلكٍ زمنيَّةٌ إنسانية ذات جذور ولكن بلا نهايات؛ لإصدارها على البقاء منفتحةً في مجرى النصِّ والهموم التي يعالج، والمصائر التي يتداول، والأزمات المتوزعة بين ما هو ذاتي، واجتماعي، وميتافيزيقي، أو بين هذه كلِّها في توليفٍ واحدٍ ومبتكَر.

إن الابتكار في لغةِ هذه الكتابة السردية وأسلوبيتها، لا يسع المهتمُّ إلَّا أنْ يتوقَّف عنده بعينٍ متبصرة. أجل، إن الترجمة قاصرة دائمًا عن نقل الغنى الأصلي للنص في لغته الأم. ولكنها تظلُّ مسبوكة، إنْ حالَفَها التوفيق، في قوالبه الصقيلة والماهرة الصُّنع، وعلى الرغم من هذا القصور. ولغة النصِّ السردي الياباني، وقبله الصيني، منتقاةٌ بنفسها في مفرداتها وعباراتها وجُمَلها وترتيبها وتدفُّق ظِلالها بما يخدم أدبيتها وأدبية القصِّ القصير وقصديَّته في الوقت عينه. لا تكون اللغة تنميقًا فائضًا يضحِّي بتعيين المعنى أو القصد المادي الأول للنص، ولكنَّها إثباتٌ لهذا المعنى وألقٌ له، وعندئذٍ يُصبح من الصعب فصْلُ جمالها عن جماليات هذا النَّص بالمعنى الاصطلاحي للكلمة. إننا نعني أيضًا أنَّ القاصَّ ليس مهمومًا حَسْب، بسرد حكايته أو نحت شخوصها واستبطانهم وتوصيف الفضاء العام والخاص حسب؛ إذ إنَّ هذا من جبلَّته، ولكنه يفعل ذلك بحسِّ فنَّان يعي أنَّه مسئُولٌ عن إعادة صياغة العالم وفقَ إبداعيةٍ متجدِّدة وليس بآليةٍ نثرية مبذولة. إنَّ شاغل الأدب هو جزء أساس من الدورة الحيوية للكتابة، والواقع وحده، حالاته وشجونه،

لا يكفي بتاتًا لاكتمال هذه الدورة، وهو وعيٌ ثابت عند الكاتب الياباني. ولا أريد أن أجزم إذا ما كان حقًّا قد أخذ له موقعه المطلوب عند الكاتب أو المبدع العربي.

ترجمة هذه النصوص، من هذه الناحية، بدتْ لنا ملحَّة لكسر طوق هيمنة مركزية الآداب الغربية والانشداد إلى جاذبيةٍ إبداعية، يحاور فيها الحسُّ الشرقي مشرقَ العروبة ومغربها. وإذا كنَّا قد أبطأنا حقًّا في هذا الانشداد، فلتكُن هذه الترجمة التي أنجزناها عن الفرنسية خطوةً بين خطوات، في انتظار أن تتمَّ الترجمة المباشرة، والخير في تقديرنا أن يوجد الاقتراب من ألَّا يوجد بتاتًا. وما هذا بالاعتذار من جانبنا، فلقَدْ حرصنا على تقديم هذه النصوص بأكثر ما يكون من الوفاء والإشراق، وكثيرًا ما استعنَّا بمختصِّين في الأدب الآسيوي، إلى أن توافرت لنا هذه النصوص التي نأمُل أن تفِيَ بحاجةٍ نحسُّ أنها موجودةٌ بإلحاح.

أحمد المديني

قصص يابانية

حلم في بلد الرجال الصغار

موشانوكوجي سانيتزو

كتبت قصة «حلم في بلد الرجال الصغار» سنة ١٩٢٣م، ونشرت سنة ١٩٢٤م في كتاب يتضمَّن أبحاثًا وقِصصًا بعنوان: «المرعى».

البدايات الثقافية الأُولى لموشانوكوجي سانيتزو (١٨٨٥–١٩٧٦م)، وجَّهته إلى الأدب وجعلته يتأثر بالإنجيل، ويجعل أيضًا من تولستوي رائده، مُركزًا بذلك في المفاهيم الإنسانية.

على امتداد الأعوام، صاغ فلسفته الخاصة؛ إذ يلعب النمو الروحي لكلِّ كائنٍ من أجل الانسجام الكوني دورًا مركزيًّا.

منذ سنة ١٩٠٧م، أسَّس مجلةً أدبية وغادر الجامعة؛ ليتفرَّغ للكتابة.

ونشَرَ عدَّة أعمالٍ روائية ومسرحية وفكرية، وتتميَّز كتابته بكثرةِ استعمال الحوار الذي يسخِّره للتعبير عن تصوُّراته الفلسفية. وقد واصَلَ نشاطه الأدبي والفكري فترةً طويلة بعد الحرب العالمية الثانية، وتميَّز كذلك رسَّامًا.

نُشرت قصة «حُلم في بلد الرجال الصِّغار» مُترجَمة إلى الفرنسية في مجموعةِ «النَّوى، الذُّبابة والليمون» وحكايات أخرى من عهد تايشو في سلسلة «قصص يابانية»، المجلد الأول، الصادرة عن منشورات «لوكاليغراف بباريس»، ١٩٨٦م.

حُلمٌ في بلد الرجال الصِّغار

دون أن أعرف السبب وجدتُني واقفًا أمام باب الرجال الصِّغار، وعلى الباب نقرأ الأحكام الآتية:

- ملعونون مَن هُم أكثر سعادةً منَّا!
- ملعونون مَن هُم أذكى منَّا!
- احترموا مَن هُم أشقى منَّا، وأكثر بلادةً أو حِطَّة!
- أثنوا على مَن هُم أكثر ألمًا وفقرًا منَّا!

ودون أن أعرف كيف حصل الأمر، كنتُ قد أصبحتُ من سكَّان هذا البلد.

والحقُّ أن السكَّان هنا يأخذون هذه الوصايا على مَحمَل التطبيق، فنراهم يأسون لتعاسة الآخَرين، ولكن لا يحسُّون بأيِّ رغبةٍ في إسعادهم، وذلك لأنهم يحبُّون الانتباه لسعادتهم الخاصة.

والمريض هنا يستثير الشفقة لدى الجميع، ولكن لا أحدَ يبتهج له إذا ما شُفي.

وقد حدَثَ أن الْتقيتُ المرأة ذات الشهرة الفائقة بجمالها، فإذا بها الأشدُّ ذمامةً. ولأنَّها تعدُّ جميلةً، فإنَّ وعي النساء الأخريات أنَّهُن يتخطينَها يفعمهنَّ ارتياحًا. أمَّا الجميلات الحقيقيات، فإنهنَّ مقتنعاتٌ، تحت تأثير الانتقادات، بأنَّهن الأكثر قُبحًا.

وأشهر جبلٍ في هذا البلد هو الأقلُّ ارتفاعًا. إنَّه الأشرف؛ إذ يُحتقر الجبل العالي لغروره وتعجرُفه.

وإنَّك لتجِدُ الجميع يُفتتنون ببعرِ الفرَسِ قائلين: «ما أجمل هذا!» ولكن إذا ما أطريتَ جمالَ وردةٍ؛ فستُعَد شخصًا متخلِّفًا.

والشخص الذي يُشار إليه في هذا البلد بالمتفوِّق الذكاء، هو في الواقع غبيٌّ تراه تائهًا كلَّ يومٍ متعطِّلًا، لا يعرف كيف يميِّز شماله من يمينه، وإذا نُعِت بالذَّكاء لا يغتبط لذلك مطلقًا، ثم إنَّه لا يغضب البتة مهما لحِقَ به؛ يظلُّ حتى لو صُبَّت عليه أقسى اللعنات، والكلُّ يتلذَّذ بالسُّخرية منه.

في هذا البلد تجري العادة بأن يُظهر واحد سخفَهُ، وإذا سمح أحدٌ لنفسه بأنْ يشفَّ عن بريقٍ من ذكاء؛ فإنَّه يُتَّهم بالوقاحة والادِّعاء على الرغم من سخفه.

والمثل الأعلى لهذا البلد هو أن تقارن التافهين بالتافهين، وبقَدْر ما تكون وضيعًا تحظى بالاحترام، وأقلُّ خصلة هي مكروهة.

عند هؤلاء الناس أيضًا ممدوح هو العمل الجسدي، وهذا بسبب الألم الذي يُولد؛ إذ ليس مستحيلًا أن تكون لك حياة مرفهة. وعلى قَدْر أَلَمِك يكونُ الإعجاب بك. وما إن يتحقَّق الإعجاب بأحدٍ بسبب ألمه؛ حتى يتحوَّل الناس إلى ثلبه. في هذا البلد ليس احترام الآخرين سوى مذلَّة.

هنا البشر جميعًا عابسون. وإذا اتفق لأحدٍ أن ضحك؛ فإنه يُنتقد مباشرة على ذلك: لماذا أنت مبتهجٌ هكذا؟ كيف تجرؤ على الضحك فيما الكلُّ متألِّم؟

ولا تظنَّن أنَّ سكَّان هذا البلد لا يبحثون عن الفرح بدورهم، إنَّهم ليفعلون؛ إذ يغتبطون وهُمْ في عُزلة. أمَّا أمام الآخرين، فكلَّما بكيتَ فذلك أفضل، والجميع يشكُون بلا انقطاعٍ من الألم.

وحين استفسرتُ أحدهم عن هذا الوضع أجابني: «إننا نتألَّم كثيرًا بمقدار ما لا نستطيع تحمُّل أفراح الآخرين، وإظهار السعادة هو فعل إجراميٌّ يثير غيرة الآخرين وكراهيتهم. قديمًا كان الرجال المقاتلون ملزمين بأن يحتفظوا بالبسمة حتى في لحظات الألم من أجل مداهنة سادتهم، أمَّا نحن فليست بنا حاجة إلى أن نُداهن أحدًا، حين نتألَّم ينعكس ذلك على وجوهنا.

أضفْ إلى هذا أنَّ فعلنا يُفهم الآخرين بأنهم ليسوا وحدهم الذين يتألمون؛ إنَّه عمل خيري.»

– أعتقد أنَّك على صوابٍ جزئيًّا، ولكنْ حتى لو أخفيتُ دموعي فأنا أفضِّل أن أضحك.

– إنك تهرف؛ فأنت لو فعلتَ هذا دون أن تحتاط لنفسك، فإنهم لن يهنئُوا بالًا إلا عندما يجعلونك تبكي.

وهكذا فقد أخذتُ احتياطي دون الضحك. وذات يومٍ وأنا أتجوَّل، اقترب منِّي شخصٌ قزم وهو يترنَّح، وباغتَنِي بالسؤال: إلى أي شيء تنظُر اللحظة؟

– كنتُ أنظر إلى الجبل، هناك في الأعلى.

– هل تحبُّ هذا الجبل؟

– أوَليس هو الأكبر؟ أجبتُه دون خلفيَّة تُذكر.

– كبير! … وهل الكبر شيءٌ يُعجب؟ إنها منتهى العجرفة أن تكون كبيرًا. إنَّ هذا الجبل المتعاظم ينظُر إلى الجبال الأخرى، وهي في تواضعها، شاعرًا بكثيرٍ من الأهمية. ولا يوجد آدميٌّ واحد لا يضطرب لرؤيته.

– أي نعم! هذا صحيح!

– إنني أغفر لك عملك في هذه المرة، ولكنِّي إذا ما ضبطتُك تُعجب مرةً أخرى بهذا الجبل؛ فلن أسامحك مطلقًا، سأُخبر الجميع وسأقدِّم ضدَّك شكوى قائلًا إنَّك طموحٌ وتستمتع بشقاء الآخَرين.

فوعدتُه بأنني منذ الآن سأبدي الاحتراس اللازم.

وبعد أن قطعتُ بضعَ خطواتٍ، عُدت أفكِّر في ما جرى بيننا، وألفيتُني فجأةً مأخوذًا بطرافةِ هذا الشيء؛ فانفجرتُ ضاحكًا ثم إنني وقد تبيَّنتُ خطأ ما فعلتُ، وضعتُ راحتي على فمي، ولكنْ بعد فوات الأوان؛ فقد لحق بي الرَّجُل الصغير لاهثًا وهو يسأل: «ما الذي يُضحكك؟ وما العجب في ذلك؟ سأشكوك بتهمة احتقار أعصاب الآخرين.»

– اغفر لي، أرجوك.

– ما من أحدٍ يمكن أن يتصوَّر أنَّ من الممكن سماع مثل هذا الضحك في بلدٍ يتألَّم فيه الجميع. أوَتحسبُ أنَّك وحدك مَن يحسُّ بالأهمية؟

– كلَّا إنك مُخطِئ.

– عليك أن تتبعني.

أخذني إلى مكانٍ تجمَّع فيه قومٌ كثيرون.

– «أنصتوا جميعًا. أرى أن هذا الرَّجُل يستحقُّ عقوبةَ الموت.»

– أيَّ فعلةٍ ارتكب؟

– إنَّه في وضَح النهار، ودون حياءٍ، أُعجب بالجبل الذي نكرهه أشدَّ الكُره.

– إذا كان ما تقول صحيحًا فعقوبته الموت!

– ثم إنَّه ضحك بملء شدقَيه وأفسد عليَّ تمامًا رصانة تفكيري، ولو أنَّكم سمعتُم هذا الضحك، لانقطعتْ شهيَّتكم عن كلِّ طعام أيامًا طويلة.

– الموت له، الموت له!

وهنا استيقظتُ وجسدي غارقٌ في العرَق.

الليمون

كاجي موتوجيرو

بعد أن بدأ كاجي موتوجيرو (١٩٠١–١٩٣٢م) دراسةً تقنية ليُصبح مهندسًا؛ تحوَّل إلى الأدب، واكتشف الجيل الجديد للكتَّاب اليابانيين، مع تانيزاكي جين إشيرو، شيغانوويا، أرشيما تاكيو، وموشنيكوجي سنيتزو. بدأت مرحلة الكتابة الحقيقية لديه، إثرَ مرضه مرضًا شديدًا وتركه الدراسة.

في سنة ١٩٢٤م يُقبل في جامعة طوكيو الإمبراطورية ويؤسِّس زملاء له من مدينة كيوطو مجلةَ «أووزورا» (السماء الزرقاء) التي صدرت من ١٩٢٥م إلى ١٩٢٧م، ونشر فيها أهمَّ أعماله. وفي العدد الأول من المجلة، نُشرت هذه القصة.

وفي فترةِ نقاهةٍ عاشها في جزيرة أيزو، ارتبط بإعجاب بكواباطا ياسوناري. وحتى وفاته المبكرة سنة ١٩٣٢م، نشر الكثير من القصص في مجلاتٍ مختلفة. ولدى اشتداد المرض عليه، بادر أصدقاؤه إلى نشْرِ مجموعته القصصية بعنوان «الليمون». وعلى الرغم من أنَّ كاجي موتوجيرو لا يعدُّ من الوجوه البارزة للأدب الياباني؛ فإنَّ قصة الليمون دخلتْ في عداد النصوص الكلاسيكية للنثر الشعري.

القصة الحالية مترجَمة إلى الفرنسية في سلسلةِ «قصص يابانية»، المجلد الأول (المصدر السابق).

الليمون

ثمَّة كتلةٌ لا تعريف لها، ولا تُنبِئ بخير، تضغط بدون انقطاع على قلبي. هل هو التحسُّس الحادُّ أو القرف؟ شيءٌ يُشبه الغثيان الذي يعقب ليلة السُّكر، ويستمرُّ حين نشرب الساكي

كلَّ يوم. هذه كانت حالتي، ولم يكُن هذا مريحًا. وما لم يكُن على ما يُرام، ليس ناجمًا عن الزُّكام الشديد المُزمِن، ولا ناتجًا عن الإنهاك العصبي، ولا الديون التي تُحرق الظَّهر أيضًا. ما ليس على ما يُرام، هو هذه الكتلة من النذير. وقد وصَلَ بي الأمر ألَّا أتحمَّل أيَّ موسيقى أو أبياتٍ من الشِّعر التي أحببتُ دائمًا مهما بلَغَ جمالها، ويحدُث أنني حين أذهب إلى أحدهم قصدًا لسماع الموسيقى من الغراموفون؛ فسرعان ما أحسُّ برغبةٍ الانصراف تستبدُّ بي وبشيء ما يمنعني من البقاء في المكان عينه. وهكذا أستمرُّ بتيهي متنقِّلًا من حيٍّ إلى آخر.

أتذكَّر أنني كنتُ في هذه الفترة، ولسبب لا أعرفه، جِد مُنجذِب إلى الأشياء الجميلة والبائسة في آنٍ واحد. فمن المشاهد، كنت أحبُّ الأحياء الخرِبة. وفي هذه الأحياء التي تشبه برودتها برودةَ الطُّرقات الرئيسية، كان تفضيلي يذهب إلى أُلفة الأزقَّة الخلفية؛ حيث الغسيل الرثُّ المنشور والأشياء العتيقة المتناثِرة والباحات الحزينة للبيوت التي تلوح لك وأنت تمرُّ، وتبقى لهذه نكهتها الخاصَّة على الرغم من جدرانها المتآكِلة بفعل المطر والرياح وواجهات بيوتها الرطبة ونصف المنهارة، والنباتات وحدها مُزهِرة، وتباغتك زهرةٌ هنا وزهرةٌ هناك بين الفينة والأخرى. وأنا أمشي في مثل هذه الأزقَّة أبذل الجهد في أن أتوهَّم بأنني، فجأةً، لستُ في كيوطو، ولكنْ مَثلًا في سنداي أو نجاساكي على بُعد مئات الأماكن، وأنني في واحدةٍ من هذه المُدن. ولو كان هذا ممكنًا لهرولتُ فارًّا من هذا المكان؛ لأذهب إلى آخر مجهول. أذهب في البدء نشدانًا للراحة التامة إلى غرفةٍ في فندق مُقفِر، حيث السرير الوثير، والفِراش من القطن النضيد. وأبقى هنا شهرًا كاملًا في حالة استلقاء، ولا أفكِّر في أي شيء. آه، لو أنَّ هذا المكان، الذي أُوجد فيه، تحوَّل فجأةً إلى هذه المدينة.

حين يشرع الوهم في التجسُّد، أبدأ في تمشيطه لمسةً لمسةً بألوانٍ من خيالي، وليس الأمر سوى مطابقةِ هذا الاستيهام بحيٍّ في حالة تفكُّك. وهو ما كان يولِّد عندي متعةً إلى الحدِّ الذي أضيع فيه أناي الحقيقية.

وطفقتُ، أيضًا، أحبُّ هذه الأشياء التي يسمُّونها الشُّهب الاصطناعية. والشهاب نفسه ثانوي؛ لأنَّ ما كنت أحبُّ هو حُزَم الصواريخ برسومها وخطوطها من الأنواع كافَّة، بألوانها الحُمر والصُّفر والزُّرق والبنفسجية، وبأسمائها: «نزول الكواكب على شوجان-جي»، «معركة الزهور»، «حُزمة القصب الذابلة». وكان هناك، أيضًا ما يسمَّى «الجرذان» على شكل حلقةٍ تُباع في صندوقٍ صغير، لشدَّ ما أثارني هذا الشيءُ الغريب! كما صرتُ أحبُّ

هذه الأقراص من الحلوى الزجاجية، المذهَّبة والملوَّنة، ومصُّها كان يُثير فيَّ لذةً لا نظير لها. ما أظنُّ أنَّ هنالك نكهةً أكثر إنعاشًا من هذه الأقراص. في طفولتي الغضَّة كنتُ أضعها في فمي متعرِّضًا للنَّهْر من والدي. ولعل هذه الذكرى العذْبَة تعود إليَّ وقد بلغتُ سنَّ الرُّشد، ونزلت إلى الحضيض حيث تستمرُّ نكهةُ هذا التذوُّق مُنعِشةً وذات جمالٍ يكاد يكون شِعريًّا تمامًا. وكما لا يحتاج الأمر إلى كبيرِ تخمين؛ فقد كنتُ مُفلسًا. ومع ذلك، فإن قلبي حين يهتزُّ لدى رؤية هذه الأشياء كنتُ أشعُر بالحاجة إلى فعل حماقةٍ تواسيني. حماقة بفِلس أو فِلسَين، ولكنْ من نوعٍ فخم؛ بما يحمل إليَّ رفاهًا طبيعيًّا.

ماروزين، على سبيل المثال، هو أحد الأماكن التي أحببتُ في وقتٍ سابق، حين لم تكُن حياتي مهزوزةً؛ حيث كنتُ أقضي الساعات وأنا أُشاهد هذه الأشياء: الكولونيا الحمراء أو الصفراء، قَنانِي العطر الرفيعة والناعمة، عشرات الأنواع من الغلايين الطويلة والرفيعة، السكاكين الصغيرة، الصابون ... السجائر ... وفي النهاية لا أسمح لنفسي إلا برفاهٍ واحدٍ، أو شراء قلمِ رصاص من نوعٍ ممتاز. والآن، فليست مازورين إلا مكانًا خانقًا بالنسبة إليَّ.

ذات صباح، وقد كنتُ أسكن تارةً عند صديقٍ وتارةً عند آخَر، متنقِّلًا بين البيوت؛ غادَرَ رفيقي إلى الثانوية ووجدتُني وحيدًا في فراغ، ووجَبَ عليَّ أن أخرجَ؛ لأتيه مدفوعًا بهذا الشيء الذي يُلاحقني. رُحت أتنقَّل من حيٍّ إلى آخر، عابرًا الأزقَّة الصغيرة التي سبق أن تحدَّثتُ عنها، متوقِّفًا عند متجرٍ يبيع الحلويات بثمنٍ بخْس، أو متأمِّلًا أقراص العجين المصنوعة من السوجا أو القريدس، صاعدًا أخيرًا نحو جادة تيراماشي، وصولًا إلى متجر الفواكه القائم في ناحيةٍ من جادة نيجو.

لن أصِفَ هذا المكان إلا بإيجاز، فمن بين المتاجر كلِّها التي أعرف؛ لا يوجد عندي تفضيلٌ آخر عليه. لم يكُن متجرًا بديعًا، ولكنَّك تحسُّ فيه بقوة الجمال الخاصة لمحلات بيعِ الفاكهة. كانت الفواكه مرصوصةً على رفٍّ جِد مُنحنٍ، يبدو مصنوعًا من خشبٍ أسوَدَ عتيقٍ. شيءٌ شبيه بتدفُّق إيقاع «اليغرو»، جميلٌ ولَّاع، موضوعٌ قبالةَ زهرةِ البحر التي تُحوِّل الناظرين إليها إلى حَجَر. هكذا كانت الفواكه مرتَّبة، أمَّا الخضراوات فهي بدورها مصفوفةٌ بعضها فوق بعض في الأعلى؛ حيث تأخذ أوراق الجزر شكلًا فائق الجمال، وكذلك البازلاء المغموسة في الماء.

كان هذا البيت مزدهيًا في الليل خاصة، ومع إنارة الواجهات المتدفِّقة في مويجاتٍ تبدو جادَّة، تيراماشي حيَّةٌ على العموم وإن كانت أكثر هدوءًا من جادات طوكيو أو أوساكا.

ولسببٍ مجهول فإن الجوانب المحيطة بالبناية تبدو مُعتِمة وحدها. وكان هذا يظهر طبيعيًّا؛ فأحد جوانبها يشكِّل الزاوية مع جادة نيجو المظلمة هي الأخرى. ولكنَّ الالتباس هو أنَّ البيت المجاور، وعلى الرغم من موقعه في جادة تيراماشي، يبقى مُعتمًا أيضًا. ومع ذلك، فلو كان هذا البيت غيرَ مُظلِم؛ فما أظنُّ أني سأحسُّ نحوه بكلِّ هذا الانجذاب. وهناك شيءٌ آخر، لا بد من التوقُّف عنده، وأقصد الإفريز المنحني، والشبيه بمقدمة قبَّعة غاطسة حتى العينَين، إلى الحدِّ الذي يجعلك تقول: «ها إنَّ ذاك المتجر هناك، يعني بخشوع مقدمة قبعته!» وفوق الإفريز تبقى الظُّلمة مُسيطِرة. ولأنَّ الظَّلام يسود حوالي المكان؛ فلا شيء من هذا المشهد البديع يستطيع أن يحول الأنظار عن فتنة المصابيح الكثيرة المعلَّقة في المدخل، والتي يتناثر ضوءُها كمطرٍ برتقالي؛ إنَّها لقليلة. وحتى في تراماشي، الأشياء التي كانت تعنيني إلى هذا الحد؛ وأنا أُلقي ببصري إلى متجر الفواكه الذي أتسمَّر لمراقبته وقوفًا في الشارع، والأشعة الطويلة للمصابيح العارية تخترق بصري، أو حين أجلس أيضًا للغاية نفسها في الطابق الأول لمقهى «كجيا» المجاوِر.

في هذا اليوم، وعلى نحوٍ استثنائي، اشتريتُ فاكهةً من المتجر؛ ذلك أنه كان يبيع، يا للعجب، ليمونًا. أجل، إنَّ الليمون شيءٌ عادي، وعلى الرغم من هذا لم يسبق لي أن رأيتُه، على الأغلب، معروضًا في هذا المحل الذي إن اتفقنا على أنه ليس بائسًا؛ فهو متجرٌ لبيع إنتاج الفصول الأربعة العادية. ودون أن أُخفي عليكم شيئًا، فأنا أحبُّ الليمون؛ لونه الخالص، شكله، وقامته المضمومة. وهذا ما جعلني أقرِّر أخيرًا شراء ليمونة. واستأنفتُ سيري بعد ذلك، دون أن أدري أين أو كيف مشيتُ طويلًا في الطريق. وبدا لي أنَّ الكتلة التي تقبض على قلبي، راحتْ تنفرج في اللحظة التي قبضت فيها على الليمون، ثم وأنا أحسُّ بأنِّي مفعمٌ بالسعادة. وهكذا، فإنَّ اكتئابي العنيد، راح أيضًا يتبدَّد بفعل هذا الشيء الصغير. ومَهمَا بدأ الأمر مخالِفًا للمعقول فإنَّها الحقيقة تمامًا، ولْنتفق؛ فما أغربه هذا الشيء الذي اسمه القلب!

برودة الحامض أمتعتْني على نحوٍ لا نظيرَ لها. في ذلك الوقت، كانت رئتاي مريضتَين والحمى لا تُفارقني، ولكي أكشف عن حالتي؛ كنتُ أشُدُّ على أيدي صحابي بما يجعل راحتي أشدَّ سخونة. ولا شكَّ أنَّ الحمَّى هي التي أظهرت لي أن إنعاش الحامض ينفذ تدريجيًّا في جسمي انطلاقًا من راحتي، وهو ما استمتعتُ به كثيرًا.

وما أكثر ما حملتُ إلى أنفي هذه الفاكهة لأشمَّها! وفورًا تحتلُّ مخيِّلتي كاليفورنيا، البلد القادمة منه، وأستعيد إلى الذاكرة عبارة «يضرب الأنف» التي سبق أن درستُها في

نَص من الصينية الكلاسيكية بعنوان «أقوالٌ لبائع المندرين». ولأنني كنت أستنشق بملء رئتي فوحانًا معطرًا، وأنا الذي لا يستنشق البتة بعُمق، فقَدْ تصاعدتْ في جسمي ووجهي دفقةٌ من دمٍ دافئ فأحسستُ بعُنفوانٍ يدبُّ فيَّ.

والواقع أنَّ هذا الإحساس العادي بالبرد، وهو لمسيٌّ وشَمِّي ومرئي في آنٍ واحد، كان منسجمًا وإيَّاي انسجامًا عجيبًا، حتى إنَّه ولَّد لديَّ رغبةً في القول بأنَّ هذا الإحساس هو ما بحثتُ عنه دائمًا، وبخاصة أنَّ هذا الشيء حدث في هذه الفترة.

وأنا تحت تأثير تهيُّجٍ خفيف، بل لديَّ ما يُشبه الشعور بالاعتزاز، طفقتُ أذرع الطريقَ مستحضِرًا الشاعر المتأنِّق وهو يسير عاليَ الجبين، وفي هذا كلِّه أُحاول قياس انعكاسات لون الليمونة وأنا أضعها على منديلي الوسِخ أو ألصقها بسُترتي أو أُضيف قائلًا: «وإجمالًا فهذا هو وزنها ...»

وإنَّه الوزن الذي بحثتُ دومًا عنه، وإليه انقادتْ بدون شكٍّ كلُّ الأشياء الجيدة والجميلة، لقد كان قلبي مُفعَمًا بزهوٍ أقربَ إلى الدعابة؛ إذ إنَّ هذه التفاهات هي ورد على خاطري، وعلى كلٍّ فقَدْ كنتُ سعيدًا.

كنت أمشي دون أن أعرف أين أو كيف، ولكني أعود دائمًا لأجِد نفسي أمام «مازورين»، وبدا لي أنَّ بوُسعي الدخول اليوم بسهولة في هذا المازورين الذي كثيرًا ما تهرَّبتُ منه بشكلٍ عادي.

هذا، ودون أن أفهم لماذا، فإنَّ إحساس السعادة الذي يغمرني راح يغرق شيئًا فشيئًا. ولم يعُد تفكيري قادرًا على الاعتماد على قَنانِي العِطر أو الأنواع المختلفة من الغلايين. وتكاثفت كآبتي، وقُلت مع نفسي إنَّ تعب المشي هو ما يولِّد فيَّ هذا الإحساس. وتوجهتُ نحو رفوف الكتب الفنية مفكِّرًا: «إنني لفي حاجةٍ إلى قوةٍ تفوق العادة؛ كي أحملها!» ومع ذلك طفقتُ أحملها واحدًا واحدًا، ولكنْ لم يخطر ببالي أن أتصفَّحها ببعض العناية ... إلا أنني، وكما لو كنت واقعًا تحت لعنة ما، حملتُ أيضًا المجلد التالي وظلَّ الشعور نفسه. ورغم ذلك لم أحسَّ بالارتياح قبل تصفُّحه مرةً واحدة، ولم أتحمَّل هذا كثيرًا؛ فأعدتُه إلى مكانه، بل إنني ما استطعت أن أفعل وأعدت الكرَّة مع عدَّة كتب. وأخيرًا وضعتُ المجلَّد البرتقالي الضخم الذي أحببتُه دائمًا، وما عُدت أطيقه. أيُّ لعنة هذه! وقد بقي التعب عالقًا بعضلات يدي. ثم وأنا في قمَّة اكتئابي رُحت أتأمَّل الكومة التي تكوِّنها الكتب التي أخذتُ.

ترى ما الذي حصل لكتب الفنِّ التي كثيرًا ما شدَّتْني إليها في الماضي؟ سابقًا، وبعد أن كنت أملأ العين منها صفحة بعد صفحة، كنت أتذوَّق الانطباع الغريب في التنافر لوجودي في وضعٍ جِد عادي.

«وإذن، آه، فهذا هو ...!» وتذكَّرت في هذه اللحظة الليمونة في كم سترتي. وكان بمستطاعي أن أجمع بكيفية مختلطة ألوان كتبي وأن أخضعها لاختبار الليمون؛ «هذا هو.»

وعاد التهيُّج الخفيف للحظة السابقة يُسكنني؛ فقد أخذت على سبيل المثال أركُمُ الكتبَ كيفما اتَّفق، ثم أشتتها، ثم أعود لأكوِّمها على عجَلٍ، وأعود فآخذ كُتبًا أخرى أضيفها إلى سابقاتها، أو أُزيحها ويصبح القصر العجائبي في كلِّ مرةٍ أحمر أو أزرق.

وانتهى أخيرًا كلُّ شيء؛ إذ وأنا أضغط على الدقَّات الخفيفة لقلبي كنتُ أضَعُ بحذرٍ الليمونة في قمَّة الحواجز، وبدا لي الوضعُ جيدًا. وبما أن نظَري راح يشمل المجموع؛ فإن لون الليمون الذي اندمج في هرمونية الألوان المُتصادِمة أعطى صفاءً خالصًا. ولأمرٍ ما، خُيِّل إليَّ أنَّ الجوَّ المغبر لمازورين، يمتدُّ بغرابة حول حافة الليمونة. وبقيتُ أتأمَّل هذا بعضَ الوقت.

وفجأةً خطرتْ لي فكرةٌ جديدة، تتعلَّق بمؤامرةٍ غريبة، سرعان ما أفزعتْني، وهي أن أترك كلَّ شيءٍ على ما هو، وأن أخرج كأنَّ شيئًا لم يكُن، وقلتُ: أخرج؟ طيِّب، هلمَّ بنا، وخرجتُ مسرِعًا.

وجعلني هذا الإحساس الفريد أبتسم وقد أصبحت في الشارع؛ إذ ماذا لو كنتُ مجرمًا خطيرًا جاء ليضع قنبلةً مروِّعة على رفوف مازورين؟ وماذا لو سمعت بعد عشر دقائق من مغادرتي رجَّة انفجارٍ مهول في جناح الكتب الفنية؟ إذن لكان هذا شيئًا مثيرًا!

وأنا في حماسي كنت أطارد هذا الحُلم. «بهذه الطريقة سيُصبح هذا المازورين الذي شعرت فيه بالتضايُق الشديد خرابًا تمامًا ...!»

ثم إنني اتجهتُ صوب كيوجوكو، حيث ملصقات الأفلام السينمائية تلوِّن الشوارع بفتنةٍ غريبة.

الضفدعة

تسوجي كونيو

ولِدَ تسوجي كونيو سنة ١٩٢٥م في طوكيو، وفي جامعتها تلقَّى دروسه في الأدب الفرنسي. بدأ ينشر بعض القصص القصيرة في المجلات الطُّلابية. عيِّن سنة ١٩٥٦م مدرسًا في جامعة باكوشوين، وإلى مهمَّة التدريس أضاف الاهتمام بالنقد الأدبي. ولم تتفتَّق موهبته الروائية إلا في وقت متأخِّر في إحدى إقاماته في أوروبا بين ١٩٠٧ و١٩٦١م. وترسَّخت قدمه في الكتابة، على امتداد الأحاسيس التي تراكمت لديه وهو يتأمَّل المشاهد الأوروبية، ومنذئذٍ والمدن والأرياف الأوروبية، وقد خلبتْ لُبَّه، تصبح أدواتٍ ممتازةً لتوصيل تيماته الأدبية.

نُشرت قصة الضفدعة سنة ١٩٦٣م، وهي تتميَّز بأسلوبها المُشرق والبسيط الذي يُضفي جمالًا على الحكاية العجائبية.

نُشرت بالفرنسية في سلسلة قصص يابانية، المجلد الثالث، منشورات بيكيبر، باريس، ١٩٨٨م.

الضفدعة

إذا لم تخُني الذاكرة، ففي شهر أيَّار من إحدى سنوات الخمسينيات نظِّم بحديقة «سو» في الضاحية الجنوبية لباريس معرض متاحف «ليل دي فرانس». وقد عرفنا أنا وزوجتي هذه المناسبة لدى قراءتنا ملصقًا في المترو.

وما أظن أنَّا كنَّا سنزور المعرض لو لم تكُن لوحة L’escamoteur (المُشعوِذ) للرسَّام الهولندي Bosch (بوش) معروضةً فيه. والواقع أننا ما كنَّا نحتاج إلى الذهاب إلى «سو» لرؤية هذه اللوحة التي توجد في متحف الـ «سان جرمان أونلاي» باريس، ولكننا كنَّا غائبَين عن باريس مدة طويلة، يُضاف إلى هذا أن الفصل كان مزدهيًا باللَّيلَكِ، ومن ثَم فقَدْ رغبنا بشِدَّة في زيارة قصر «سو» وحديقته المسمَّاة بـ «فرساي الصغير» تيمُّنًا بقصر فرساي الأصلي.

كان يومًا جميلًا، النهار فيه مُشرِق، وأزهار اللَّيلَكِ تسطع بنورٍ حيٍّ وفتَّان، وقصر «سو» بناءٌ جميل منسجم مبنيٌّ على طراز القرن السابع عشر. ومن الصالون المطلِّ على الحديقة، نستطيع أن نرى من الجانب الآخر للغابة الامتداد المُضيء للحوض حيث ينساب الإوزُّ.

عند مدخل الصالون وقعتْ نظراتُ زوجتي على امرأةٍ في سنٍّ ناضجة، ترتدي ثياب الحِداد. في هذه اللحظة، كنتُ قد تقدَّمتُ خطواتٍ نحو الباحة المُشرِفة على الحديقة؛ وحين الْتفتُّ صوبَهَا لاحظتُ زوجتي منهمكةً في نقاشٍ صاخب مع المرأة المفجوعة. لم أتبيَّن شيئًا من مُحتواه.

واقتربتُ من زوجتي موجِّهًا عباراتِ التحيَّة إلى رفيقتها، ومن خلال الخِمار المُسدَل على وجهها؛ ميَّزتُ العينَين الرماديتَين البليلتَين للآنسة دنيس ف — هكذا قدَّمتْها لي زوجتي — وكانت العينان تُرسلان نظرةً مروِّعة، متسائلةً ومحتجَّة في آنٍ واحد.

– تراها فقدتْ أحد أقاربها؟ سألتُ بعد أن غادَرنَا دنيس ف.

– إنَّها دائمًا هكذا، أنا أيضًا سألتُ حين رأيتُها أول مرَّة: على مَن ترتدي ثياب الحداد؟ لكنْ يبدو أنَّ الأمر على خِلاف ما نعتقد. إنَّها تتخيَّل نفسها أرملةً في حين أنها لم تتزوج قَط.

– لعلها فقدتْ صديقها في الحرب.

– على كلٍّ؛ فهي امرأةٌ باردة، جِد باردة، بل يقال إنَّها مجنونةٌ، ولا أحد يكلِّمها. ففي قاعة الدرس، على سبيل المثال، تجلس بمفردها بمنأًى عن الجميع … وحين نغادر القاعة مجتمعين ونحن في حوارٍ مع المدرِّس، تبقى متخلِّفة عنا بضع خطوات. أحيانًا أرثي لها وأُعيرها ما دونتُه من ملاحظاتٍ حين تطلُب منِّي ذلك، إلا أنَّ لديَّ انطباعًا أنَّها تُعيد لي دفتري وسِخًا، كما لو أن رُطوبة يدَيها الباردتَين تسرَّبتْ إلى الدفتر؛ ممَّا لا يشجِّعني على إعارتها إيَّاه من جديد.

وأنا أستمع إلى زوجتي، تذكَّرتُ اتصال يدي باليد الباردة والرطبة لدنيس ف. كنتُ ما أزال أحسُّ بالبرد على جِلدي، هنا حيث لمستْني.

غير أننا ما لبثنا أنْ قطعنا حبلَ الحديث؛ فقد كانت اللوحة العظيمة لبوش أمامنا معلَّقة في نهاية الصالون، وحضورُها قد أحال الجوَّ أكثرَ صفاءً وكثافة. في سماءٍ غريبةٍ وعلى جدارٍ مرسومٍ في الخلف، يُرى أناسٌ مأخوذون في أوضاعٍ للسحر، وهنا مُشعوِذ وبُومة داخل قفَّة معلَّقة بحِزامه، وكلب، ثم ضفدعة على الطاولة، فشيخ متطلِّع إلى أمام؛ ليرى جيدًا.

في هذه اللحظة تمامًا صدَرَ عن زوجتي ما يُشبه الصَّرخة: آه، إنها الضفدعة.

وأشارتْ بإصبعها لا إلى الضفدعة فوق الطاولة، بل إلى أخرى بعينَين مذهبتَين، يُمسك الشيخ المنحني إلى الأمام بفمها المفتوح.

لم أعُد أتذكَّر الكلمات التي تبادلناها في موضوع اللوحة، ولكنِّي ما استطعتُ أن أمحو من ذاكرتي الغرابةَ التي أثارها هذا المشهد الوديع، الإحساس الذي قد نستشعره، على سبيل المثال، حين يختفي الضجيج دفعةً واحدة.

بعد سنتين من هذا، ذهبتُ من جديد لرؤية لوحة بوش في متحف سان جرمان أونلاي؛ ربما لكي أتأكَّد من انطباعي. وقد اتفق أنَّ زوجتي كانت مُنشغِلة في اجتماع؛ ممَّا جعلني أركب الحافلة بمفردي إلى الضاحية بعد ظهيرة هذا اليوم الخريفي المُعتِم والمُمطِر. كانت القاعة التي تضمُّ اللوحة هادئة ومُقفِرة، غير أني لمحتُ امرأةً ترتدي السَّواد منتصبةً أمام اللوحة، وعند دخولي كانت في طريقها إلى الخروج. ولدى المرور أمامها، تبيَّنتُ من خلال الخِمار الأسود العينَين الرماديتَين البليلتَين والنظرة المروِّعة لدنيس ف. ولم يتهيَّأ لي أن أوجِّه إليها التحيَّة؛ فقَدْ مرَّتْ أمامي كظلٍّ.

وفي المساء وأنا جالس في مطعمٍ صغير مُلقيًا بنظري على المدينة من النافذة، بدأ المطر يهطل ثم وصلتْ زوجتي بعد حين.

– آه، خبِّرني كيف وجدتَ اللوحة؟

– رائعة، ثم إنني قابلتُ تلك المرأة التي الْتقيناها في «سو».

فبدَرَ منها الاستغراب وسألت: أأنت متأكِّد؟

– أجل؛ تمامَ التأكُّد. لقد كانت في ثوبِ الحِداد كما هي في ذلك اليوم.

ثم إنها صمتتْ بعض الوقت، وأمعنت النَّظر في وجهي قائلة: ولكن دنيس ماتت منذ وقت مضى.

وبدا لي كما لو أنَّ العالم كلَّه قد خفَتَ منه الحِسُّ.

وفي الفراغ الذي ساد بقي المطر وحده يهطل غزيرًا. وإنني لأذكُر، أيضًا، وبكلِّ وضوح أنَّ وجه زوجتي كان بعيدًا على نحوٍ غريب.

في جوهر الكائن

كاواباطا يسوناري

نشَرَ كواباطا يسوناري (١٨٨٩–١٩٧٢م) القصة القصيرة في جوهر الكائن في مجلة «بنجي شونجو» في شهر شباط (فبراير) ١٩٦٣م، وهو في الرابعة والستين من عمره. وقد نُشرت تحديدًا بعد قصتَيه المعروفتَين: «الناعسات الجميلات» في ١٩٦٠م، و«العاصمة القديمة» (كوطو) في ١٩٦١–١٩٦٢م. وفي سنة ١٩٦٩م حصل كواباطا على جائزة نوبل للآداب، ووضع حدًّا لحياته منتحرًا سنة ١٩٧٢م.

القصة المترجَمة، هنا، ربما تثير استغراب القارئ المطَّلِع على أدب كواباطا، والذي ألَّف عنده عالمًا ترصد فيه الأجواء اليابانية التقليدية. والواقع، إن الأمر يتعلَّق دائمًا بالطريقة نفسها في وصف المرأة فيزيولوجيًّا بدلًا من تقديمها اجتماعيًّا.

إنَّ «ممويو»، من جهة اسمها الشخصي، هي المرأة من حيث الجوهر، المرأة الخصبة (من «مومو» الخوخة) جيلًا عن جيل («يو»). أوَليس طفل الحكاية اليابانية التقليدية مولودًا من الخوخة التي تتفتَّح؟ غير أنَّ المرأة الفيزيولوجية، وكما سنلاحظ، في هذه القصة تعبُر بسهولة حدودَ ما هو مَرَضِي؛ ومن ثَم فإنَّ الكاتب الذي اهتمَّ طوال ممارسته الإبداعية بالمرأة، سيحمل في سِنِي حياته الأخيرة اهتمامًا خاصًّا بالانزلاق ممَّا هو فيزيولوجي إلى ما هو مَرَضِي (باثولوجي).

قصة «في جوهر الكائن»، نُشرت مترجمةً إلى الفرنسية في المجلد الثالث من سلسلة «قصص يابانية»، منشورات بيكيبر، باريس، ١٩٨٨م.

في جوهر الكائن

«أي أَلَمٍ أنْ أراك ... وأي أَلَمٍ ألَّا أراك.»

وبألَمٍ شديد بقيتْ رسالةُ مومويو منقوشةً في قلب شيمورا.

وبدا له كأنَّما قام في داخله نصُبٌ سُجِّلتْ عليه هذه الكلمات.

والنُّصُب يعوم في الليل الفارغ غارقًا في ضبابٍ كثيف. تحت النُّصُب انتصبتْ شجرتان من الدَّرْدار عاريتان من الأوراق، وتحاذيان ضفَّة نهرٍ كبير يجري قريبًا منهما متخفِّيًا في الضباب، ثم ما يلبث أن يتبدَّد صُعدًا في فضاءٍ ناصعِ البَياض. هل هذا لون الأشجار؟ كلَّما فكَّر في عبارتَي مومويو يتجلَّى أمام شيمورا هذا المشهد.

والنُّصُب العائم في الفراغ كان العنصرَ الوحيد المقترِن بالهلوسة، في حين لم يكُن للنُّصُب، لا في الضباب المتأخِّر ولا في قلبه، أيُّ شكلٍ محدَّد. وكل ما في الأمر، أنَّ كلمات مومويو تمكَّنتْ من داخله، كما لو أنَّها حفرتْ على الصخر.

لم تكُن هذه الكلمات زخرفةً خالصة. ومن ريشة مومويو التي تخطُّ أحيانًا كلامًا غريبًا، بدتْ له الكلماتُ عاقلةً. وفي نظره، فهي تعبِّر عن خشية الخطيئة عند امرأةٍ متزوِّجة متوجِّهة إلى موعدٍ سِريٍّ مع رجُلٍ، والاضطراب الذي يمسُّها حين تسيطر على رغبتها في أن تراه. وقد عدَّ شيمورا أنَّه هو مَن كان ينبغي أن يوجِّه هذه الرسالة إلى مومويو. واتَّضح له أنَّه يحمل في نفسه ذات الأحاسيس التي لديها. ثم ألَمْ تكُن كلماتها تضرُّعًا إلى الحُب. وبدا له أنَّ إدراكه حُبَّه لها عن طريق رسالتها يُعدُّ في الحقيقة خضوعًا لسطوة امرأة. لكنْ، وبالنسبة إلى شابٍّ مثله في الثانية والثلاثين من العمر، فإنَّ مومويو امرأةٌ بالغة الغرابة. وإنَّ بها شيئًا أقلَقَ شيمورا حتى أنَّه سأل نفسه إن كانت امرأةٌ مثلها تستطيع أن تحبَّ رجلًا، أو إنَّ رجُلًا يَقْدر على حُب امرأةٍ كهذه. لقد كانت مومويو في السادسة والعشرين، أيْ تصغُره بستِّ سنوات، غيرَ أنَّه ليس للعمر علاقةٌ بمثل هذه الأمور.

ومع ذلك، فحين أخذها شيمورا بين ذراعَيه أولَ مرَّة انكمشتْ على نفسها مرتعِشةً؛ فهل كان ذلك بسبب أنَّها متزوِّجة، وما تزال في مُقتبَل العمر؟

– إنني قذِرة جسدًا ورُوحًا — قالت — إنني قذِرة.

تردَّد شيمورا قليلًا، ثم خفَّف لحظةً عناقه إيَّاها قائلًا: «على هذا الأساس فإنَّ البشرية كلَّها قذِرة، ولكنْ من الخطأ الاعتقاد بذلك. ليس ثمَّة أحدٌ قذِرًا، ومَهمَا فعلَت البشرية فإنَّها لا يمكن أن تكون قذِرة ...»

– في جوهر الكائن، هناك أشياءُ كثيرة. ثمَّة غليان.

– في جوهر الكائن، في جوهركِ أنتِ، هذا ما تقصدين؟

– أجل، في جوهري أنا ... إنني خائفة.

– في جوهر مومويو، لا توجد إلا مومويو. ألَا تعتقدين بهذا؟

– لا، مومويو ليست في جوهر مومويو.

– وهذه مَن؟ سأل شيمورا وهو يهزُّها.

– إنَّها مومويو.

– ولكن في الجوهر ماذا يوجد؟ أريد أن أرى؛ أريني ماذا هناك.

– أنت يا شيمورا، بعينَيك هاتَين، لا تستطيع أن ترى، وهذا أفضل.

تقول مومويو وقد بدتْ هادئةً مسبلة العينَين.

شرع شيمورا يعريها: يا له من جسدٍ جميل! ... لماذا تظنِّين أنَّه قذِر؟

– إنَّك لا تستطيع أن ترى يا شيمورا.

– أجل، إنني أرى جيدًا.

– لا تنظُر إليَّ؛ إذ ليس معروفًا ما يمكن أن يخرُج منِّي.

– أوه، ليخرجْ أيُّ شيء؛ فالأمر عندي سيَّان ... سنطرد كلَّ ما هو في الداخل. الشياطين والجِن والديدان والعظايات.

وحركتْ مومويو رأسها بالنفي نحو الأسفل: إنَّك لا تفهم؛ هناك أيضًا البحر والثلج، ثم هناك الأشباح التي تدخُل وتخرُج.

– وإذن، فعندي أنا كذلك هذا الشيء، بلا شك.

– كلَّا، لا داعي لمحاولةِ مواساتي، أنت الذي من لُطفك تعلَّقتَ بي.

وقال شيمورا بنبرةٍ هادئة وعذبة: لماذا عندكِ هذا، هنا؟

– لأنني امرأة.

– غريب.

– المسألة هكذا، إنني سعيدةٌ بكوني امرأة. وبفضل هذا أ...

– لا يبدو عليكِ أنكِ أنجبتِ مرتَين.

– هكذا، إذن؟ أتعتقد أنَّه ليس حسنًا؟

– كلَّا، على العكس تمامًا.

وبعد قليل استعادتْ موموبو تنفُّسًا هادئًا، وظلَّتْ بلا حراك. ولكنْ لأنَّ الصمتَ هيمَنَ؛ استأنف شيمورا الكلام.

– أوَتنامين؟

– لا، لا أنام. إنني سعيدة. أعطني يدك.

بحثت موموبو، وعيناها ما تزالان مُغمَضتَين، عن ذراع شيمورا ووضعتْها تحت رقبتها، وبدتْ مهيَّأةً لتنام.

– بمُستطاعكِ أن تنامي، قال لها.

– أوه، لا؛ سيكون هذا مؤسفًا.

– مَن يدري، فلعلَّكِ إنْ نمتِ فستجعلين الأشياء التي في داخلكِ، كما تزعمين، تنام بدَورها؟

– أخشى إن نمتُ ألَّا أحسَّ بأنِّي بين ذراعَيك. وليس لدينا وقتٌ كثير، وهذا مؤسفٌ حقًّا. وسيكون جميلًا لو استطعتُ أن أراك في الحُلم، ولكن سيكون محزِنًا أن أحلُم بشيءٍ آخر. إنني بمجرد أن أغفو أحلُم.

وفتحت موموبو، التي كانت تتكلَّم بطيئًا بصوتٍ غَرِد، عينَيها فجأةً ونظرتْ إليه مُرتعِبة: تريد منِّي أن أنام؛ لكي تفكِّر وحدك في أمرنا وأنا نائمة، أليس كذلك؟

– ماذا تقولين؟

– هذا هو، أليس كذلك؟ اعترفْ! قالت وهي تسند وجهها إلى كتف شيمورا: لعلَّه كان من الأفضل لي لو أنَّ السيارة داستْني.

– ماذا تقولين ... لقد تجشَّمتِ خطرًا هائلًا ... كيف يمكن فِعلُ شيءٍ مماثِل؟ قال شيمورا وهو يمرِّر أصابعه في شَعْرها.

– ولكنني أردتُ أن أُخاطر بحياتي. قالت موموبو: أجل، كان عليَّ أن أختار بين أن أموت على يدَيك أو أن أُصبح بين ذراعَيك.

– من حسن الحظِّ أنِّي لم أقتلْكِ — وحين نطق بهذه الكلمات أمستْ حساسية جسد موموبو أكثر واقعية — ولكن افترِضِي أنني سبَّبتُ لك جُرحًا؛ فهل كنتُ أظنُّ أنكِ بين ذراعَيَّ في هذه اللحظة.

– هل تعني حقًّا ما تقول؟

– إنَّها العناية الإلهية وحدها التي أنقذتْنا. هذا هو التفسير الوحيد، وأنا لا أعرف أيَّ معجِزةٍ جعلتْ سيارتي تقف.

– أنا مَن دفَعَ بالقدَرِ إلى هذا الاتجاه، بمستطاعك أن تضغط على القدَر. قالت موميو بمرح: ففي جوهر الكائن يوجد هذا أيضًا.

– ...

لم يكُن شيمورا قادرًا على أن يقتنع اقتناعًا معقولًا بما تقول. ومع ذلك ما كان هناك مناصٌ من القبول بأنَّ موميو قد «دفعَت القدَرَ» وهي «تخاطر بحياتها».

إنَّ هذا الفعل الذي أقدمتْ عليه مجازِفةً بحياتها، هذا الفعل الجنوني هو قطعًا ما يربط أحدهما بالآخر الآن؛ فقد غامرتْ موميو بحياتها، ولكنها مقابل ذلك كسبتْ شيمورا.

ففي ليلةٍ شتائية غارقة في ضبابٍ كثيف، كانت سيارةُ شيمورا تنهبُ الطريق المحاذية للضفَّة، حين ظهَرَ على حين غِرَّة قَوامُ امرأةٍ في ضوءِ مصابيح السيارة. ولقد أغمض شيمورا عينَيه بعضَ ثانية وهو يجهل كيف تجنَّب الخطر بالابتعاد نحو النهر، ولا كيف أوقف السيارة، ولم يحسَّ بشيءٍ تحت العَجلات، ولكنْ وقَدَ في ذهنه أنَّه صدَمَ المرأة. وحين فتَحَ عينَيه لم يتبيَّنْها. هل كانت هلوسةً؟ شبحًا؟ لا ليس هذا بممكنٍ، ونزل شيمورا. كانت سيارته قد لامستْ شجرتَي دَرْدار ضخمتَين قبل أن تتوقَّف نهائيًّا. كانت المرأة مُرتمِيَةً على الطريق. وحين أراد رفْعَها عن الأرض، بدتْ كالمُغمى عليها.

وفي ضوء المصابيح تفحَّص وجهها، وصدرت منه صرخةُ استغراب: إنَّها السيدة ميساكي!

وتحت وقْعِ المفاجأة هزَّها قليلًا: سيدتي! سيدتي!

فتحتْ عينَيها، ونظرتْ إليه: آه، إنَّه أنت، سيد شيمورا.

– أيُّ خوفٍ هذا الذي استولى عليَّ! عسى ألَّا أكون قد صدمتُكِ.

حاول إنهاضها، ولكنْ لم يكُن في طاقتها ذلك، وحَسبَ أنَّه جرَحَها في ساقَيها ثم ما لبث أن فطِنَ إلى أن الصدمة هي ما يجعلها غيرَ قادرةٍ على الوقوف؛ فأجلسها في السيارة وهو يقول: ولكن ماذا كنتِ تفعلين هنا؟

– كنتُ أنتظر مرورَ سيارتك.

– ماذا تعنين؟

– إنني أعرف أنَّك تعود من هذه الضفَّة.

– ...

– أردتُ أن أُسحق بسيارتك.

ونظَرَ شيمورا إلى وجه مومويو وهو يسأل نفسه: هل كانت في حالة هذَيَان؟ وحين دخَلَ السيارة استندتْ إليه. وما إن سحَبَ نفسه، حتى انهارتْ على المقعد.

– لنذهبْ للبحث عن طبيب، قال شيمورا.

– لا، لا أريد طبيبًا. ثم إنها استقامتْ مستنِدةً إلى كعبَيها قائلةً إنَّها لا تشكو من شيء.

– وإذن، سأرافقكِ إلى بيتكِ.

– لا، لا ليس إلى بيتي؛ إنَّها سيارتك ما كنتُ أنتظر.

– اهدئي قليلًا.

– ساعدْني، احملْني إلى مكانٍ ما؛ كي أستريح ... إنَّ فمي متيبِّسٌ تمامًا، وحنجرتي مُلتهِبة.

راح شيمورا يسوق بهدوءٍ في الليل الغارق في الضباب وهو يلتفتُ نحوها بين الفينة والفينة، خيِّل إليه أنَّه ينقل مجنونة. واستبدَّ به القلق إزاءَ فكرةِ أنَّ مومويو قد تحاول فتحَ الباب وإلقاءَ نفسها إلى الطريق، غير أنَّها في تلك اللحظة اكتفتْ بدَعْكِ خدِّها بيدها اليمنى، وهنا سألها شيمورا: أوَأُصبتِ في خدِّك وأنت تقَعِين؟

– لا، إنَّما ألمس خدي لأتأكَّد من أنِّي لستُ في حُلم؛ إذ أخشى أن تختفي كما يحدُث في الحُلم.

– بل أنتِ من أخشى أن يختفي كما في الحُلم. عفريتٌ عابر يصعد إلى سيارتي، وبعد وقتٍ ألتفتُ فلا أجِدُ أحدًا، لا أجِدُ سوى الضباب يغمُر السيارة.

– أمَّا أنا في الضباب؛ فلم أكُن أرى سوى صورتك. إنَّ هذه الرؤية هي ما قادني إلى هنا بشيءٍ يُشبه المشي في عمق الماء دون تنفس، وإنِّي لمُستغرِبة كيف أنَّي بعدُ على قيد الحياة.

– أوَلستِ عفريتًا اتَّخذ سمتَ مومويو؟

– لست أدري، ففي داخلي لا يوجد سواك. أمَّا أنا فلستُ موجودة.

غادرت السيارة الضفَّة لتدخل إلى المدينة، وتوقَّف شيمورا عند نُزُلٍ صغير.

وشربتْ مومويو ثلاثةَ أقداحٍ من الماء بإيقاع مُتواصِل دون أن تسترجع نفَسَها.

– وأخيرًا. ها أنت ذا لي. وبعينَين غائمتَين بالدمع أضافتْ: إنني شنيعةٌ.

– وإذن، فإنَّكِ تجشَّمت هذا الخطر من أجل إغوائي!

– لقد كانت الوسيلةَ الوحيدة. أوه، لشدَّ ما أنا خائفة! — وتعلَّقتْ بذراع شيمورا — وإنَّ مصيري أن تحملني الانجرافات.

حين أقول الكلمة فأنا أرى الانجرافات. أراها تهوي إلى داخلي وتحملني.

– النجدة!

وأخذها بين ذراعَيه وهي مُنكمِشةٌ ترتعش.

كان شيمورا وميساكي، زوج موميو، رفيقَي دراسة في الجامعة، ودُعي شيمورا إلى زواجهما. وفي ختام حفل الزفاف اصطفَّ العروسان مع الأقارب والشهود؛ لتحيَّة المدعوِّين الذين شرعوا في المغادرة، ولقد صُعق شيمورا وهو يرى عينَي العروس باكيتَين.

فيما بعد كان يُدعى أحيانًا عند أُسرة ميساكي، أو يمرُّ لزيارتها دون موعد. وكان يعلم أن موميو أنجبتْ طفلَين. وذات يومٍ وهو يمرُّ للزيارة، قدَّمتْ له موميو طفلتها الصغيرة ذات الشهرَين؛ فهنَّأها وأثنى عليها، وقالت: هل تعلم أني حملتُ هذه الطفلة في بطني تسعة أشهُرٍ كاملة؟

– إه …

وكانت الطفلة نائمة.

– أري السيد شيمورا عينَيكِ. قالت وهي تُهَدهِدها في محاولةٍ لإيقاظها، وطفقت الصبيَّة تبكي بصوتٍ عالٍ حتى احمرَّ وجهها.

– لم تكُن تبكي حين كانت في بطني.

وعند سماعه هذه الأقوال شبه الغريبة، شرع شيمورا يتفحَّص موميو التي أضافت: أنا، أردتُ أن أبقى في بطن أمي. أتوجد كائناتٌ لا تغادر بطن أمِّها؟

– …

بعد عامٍ من هذا اللقاء، أدرَكَ أن موميو تحسُّ نحوه بميلٍ قوي. وبتحريض من ميساكي، قرَّر الالتقاء بفتاةٍ لغرض الزواج.

– إنَّ موميو تلحُّ بشدَّة في أن تساعدك في اختيارك — قال ميساكي في هذه المناسبة — وكما تعرف فهي غريبةُ الأطوار بعض الشيء. إنَّ بوُسعها أن تقول أيَّ شيء؛ فلا تبالي بشيء.

كانت الفتاة برفقة أمِّها، وتعشَّى الجميع في مطعمِ فندقٍ كبير. وإلى جانب موميو التي كانت تغطِّي وجهها كآبةٌ عميقة، بدَت الفتاةُ مثلَ صفحةٍ بيضاء. وفي لحظة التوديع أهدتْ موميو إلى شيمورا علبةً صغيرة، احتوت على دبوس لربطةِ العُنق، مصوغ بجواهرَ سُود.

وإذا كان غريبًا في مناسبةٍ مثل هذا اللقاء أن تقدِّم له موموبو هديَّة؛ فإنَّ ما أثار استغرابَ شيمورا أكثر هو الورقة التي وجَدَها مدسوسةً في العلبة. ومن الطبيعي أنَّ شيمورا كان أبعدَ ما يكون عن أن يتصوَّر، ولو في الحُلم أنَّ موموبو قادرةً على أن تُلقي بنفسها تحت عَجَلات سيارته مُجازِفةً بحياتها.

وبالطريقة نفسها التي لم تتردَّد فيها عن المخاطرة بحياتها في فِعلٍ متطرِّف، واصلتْ موموبو أيضًا ملاحقةَ شيمورا برغبةٍ جامحة.

«أي ألَمٍ أنْ أراك ... وأي ألَمٍ ألَّا أراك.»

بقيَت الكلمات التي كتَبَتْها إليه كما لو أنَّها منحوتةٌ على نُصُبٍ عائم في الليل الفارغ، غارق في الضباب، كلمات مكتوبة على قلبه. وشعَرَ بأنَّ سرقةَ زوجةِ صديقٍ والإحساس بالذنب باتا يسبِّبان له ألَمًا لا طاقةَ له على احتماله. وشرع شيمورا يبتعد عن موموبو. لكنْ ما إن تغيب عن ناظرَيه حتى يتصوَّر أنَّه لا توجد امرأةٌ تُضاهيها ممَّا خلَقَ لديه اضطرابًا مستمرًّا يُطبق على أنفاسه. وفي كلِّ مرَّة يتخطَّى فيها شجرتَي الدَّرْدار محاذيًا الضفَّة بسيارته، وهو عائد إلى بيته يخيَّل إليه أنَّه سيصدمهما، فيما تفكيره يقول له دومًا: «إن تركتَ موموبو؛ فلرُبَّما دفعتَها إلى الجنون، إلى الأبد.»

وذات يومٍ وهو في عمله، اتصل به ميساكي هاتفيًّا، وأخبره بأنَّه يريد أن يُحادِثه بشأن موموبو، ولم يستطع شيمورا أن ينبس ببنتِ شفة. قال له ميساكي إنه في انتظاره عند مُنعطَف «جينزا» أمام بناية «واكو» في الساعة الخامسة والنصف.

في هذا الوقت في فصل الشتاء، يهيمن بعض الغبش. وحين اقترب شيمورا من ميساكي، تبِعَه هذا الأخير كما لو أنَّه يريد لنظراتِهما ألَّا تلتقي، وبادَرَه قائلًا: أعتقد أنَّ من الأفضل أنْ نتحدَّث ونحن نمشي وسط الناس، وبخاصة بالنسبة إلى هذا النوع من المحادثة.

– إنني أحسُّ بالخجل إزاءَك، إنني جِد خجِل.

– ...

– لقد روتْ لي موموبو قصَّتك. إنني على علمٍ بكلِّ شيء.

– اغفر لي؛ فأنا لا أعرف ماذا أقول لك. وواصل شيمورا كلامه ببصرٍ خفيض: المعذرة أعرف أنَّ ما من جدوى من هذا الكلام، ولكن ...

– كلَّا؛ لا بأس. ليس هذا ما أردتُ أن أتحدَّث عنه.

واصَلَ ميساكي بصوتٍ خفيضٍ، وجِد مُرتبِك: لماذا لا تريد رؤية موموبو هذه الأيام؟

– كيف؟

– ألأنَّك تعتقد أنَّها مريضة؟

– لا.

– سأقول لك، لا يضيرني أن تراها.

ومضى شيمورا بضعَ خطواتٍ قبل أن يُجيب: ولكنْ لماذا تقول لي هذا؟ إنَّك أنت المريض!

– أنا في كامل انتباهي، ولستُ إلا الملاك الحارس لمومويو، ومجرَّد بقائها على قيد الحياة يُشعرني بالسعادة. كما أنَّ سعادتي، هي أن يمكِّن وجودي من الحفاظ على سعادتها.

– يبدو أنَّك كِدتَ تدوسها؟

– ...

– إنَّك تشكُّ في أنَّه كان لمومويو رجلٌ آخر قبلَك. لقد كان لها عشيق قبل زواجنا، وهي تحتاج دائمًا إلى رجُل.

– وأنت هل تتسامح إزاءَ هذا الوضع؟

– إنَّني مُجبَر على هذا؛ إذا لم يكُن لها عشيقٌ تحسُّ بحالةٍ من الافتقاد، إنَّها الأعراض نفسها، أعراض المُدمِنين على المُخدِّرات؛ فتُصبح مثل الحمقاء، وهذه هي حالتها بعد أن تركتَها.

– ...

– الكائن — إنَّه هو مَن تقصده مومويو بهذه الكلمة — جوهر الكائن، هناك أشياءُ كثيرة، ألَمْ تقُل لك هذا؟

– أجل، لقد قالت.

وفجأةً لاحت لشيمورا الطريق التي تُحاذي الضفَّة، قريبًا من أشجار الدَّرْدار العارية من أوراقها، أوَلن تَظهر مومويو من جديد تحت العَجلات؟ وهل يستطيع المصير أن يوقف السيارة مرَّة أخرى؟

حُلم جنديٍّ ما

أبي كوبو

وُلد أبي كوبو في طوكيو سنة ١٩٢٤م. درس الطبَّ في البدء، وبعد تخرُّجه سنة ١٩٤٨م ترك الطبَّ؛ لينضمَّ إلى جمعية رجال الآداب في اليابان، ثم إلى جمعية الأدب الياباني الجديد. وقد نالت أعماله أهمَّ الجوائز الأدبية المُعادِلة للغونكور الفرنسي في سنتي ١٩٥٠ و١٩٥١م. وجائزة اليونسكو سنة ١٩٦٧م لأهمِّ مؤلَّف أجنبي.

يميل كوبو إلى حصر شخصياته في مجالٍ مغلَق؛ من أجل مُساءلتهم عن معنى وجودهم وحقيقته. والقصة التي نترجمها هنا «حُلم جنديٍّ ما» نُشرت سنة ١٩٥٧م، وهي تبدأ وتنتهي بمقطعٍ شِعري مُلغِز. زمنها ليلةٌ، وهي حكاية وهميةٌ أكثر منها واقعية. إنَّه شرطيٌّ عجوز، مُتوحِّد، في حالةِ انتظارٍ داخلَ عالمٍ مغلَق على نحوٍ مأساوي، بمتاريسَ حقيقية هي القرية وجدار بيت العمدة، وبأخرى رمزية أيضًا هي انعدام الحوار مع الثلاثي الجهنمي ممثَّلًا بالعمدة ومساعده وبضميره هو.

مدَّة هذا الانتظار ليلةٌ واحدة. من أجل أيِّ فعلٍ أو حدَثٍ؟ لا شيء. بل إن غياب الحدث هو المِلح.

نُشرتْ «حُلم جنديٍّ ما» بالفرنسية في المجموعة آنفة الذِّكر.

في يومٍ جِد بارد يكاد يُجمِّد الحُلمَ
جاءني حُلمٌ مُرعِب.

خرَجَ الحُلم مُرتديًا قبَّعة
في بدايةِ ظهيرة،
فاعتزلتُ بنفسي.

حُلم جنديٍّ ما

مضَت الآن خمس عشرة سنة. أجل، ليس للحقيقة من تاريخ، ومع ذلك فإنَّ هذه الحكاية تتطلَّب تاريخًا. ربما لأنه لا شيء حقيقي فيها.

منذ البارحة، بدأت عاصفةٌ عنيفة تجوس خَلَل القرية الصغيرة التي تُحاصرها الثنايا الجبليَّة عند حدود الضاحية. وتجعلها، وهي مأخوذةٌ في الدوَّامة، تُنَهنِه بألمٍ. وفي وقت باكرٍ من الصباح، كانت فرقةٌ من الجنود قد وصلتْ من المدينة مخترقةً المرتفعات للقيام بتدريباتٍ خاصَّة بمقاومة البرد، وهم يَجرُّون أحذيتهم الثقيلة فوق الثلج الكثيف. وبإيقاع المعزوفات العسكرية، كانوا يعبُرون القرية بخطوٍ متعثِّر ليختفوا بعد ذلك مثل ظلال في العاصفة الثلجية.

كان الليل قد حلَّ حين هدأت الريح. في مركز الشُّرطة عند مدخل القرية، جلس شُرطي وهو أعزب عجوزٌ يتسلَّى بتقشير البطاطس، مُدفئًا قدمَيه في آنٍ واحد أمام الموقد المتأجِّج. في الداخل، كان جهاز الإرسال يعمل، ولكنَّه لم يكُن ليستمع إليه وهو الضائع في حُلمٍ عذْبٍ ولا نهائي.

«لقد حقَّقتُ أنا عدَّة اكتشافات؛ فأنا أعرف أنَّ العمدة ومساعده يُتاجران في السوق السوداء، وبالاشتراك مع المسئُول الأعلى يُخفون غنائمهم تحت بلاط المعبد. أعرف هذا، وأبقى مزموم الفم. الجميع في القرية يعرفون أنني أصمتُ، وإذا كانوا يُغدقون عليَّ الهدايا، فليس من أجل شراء صمتي، ولكن من أجل التعبير عن تعاطُفهم معي. ولن أكون مضطرًا إلى مغادرة القرية شأن شُرطة آخَرين، حتى إذا بلغتُ مرحلة التقاعد، بل سأبقى هنا بكامل الارتياح. وربما قضيتُ شيخوخةً ممتعة إذا ما عثرتُ على أرملةٍ تملك قطعةَ أرض. حين لا يملك المرء طموحًا بلا حدود، فمن الأفضل له أن يكون فلَّاحًا، ثم لا بد لي من بيت لاستقبال ابني عند عودته من الجيش.

بفضل الحرب لديَّ الخيار بين ثلاث أرامل ذوات نصيب. ومن الطبيعي أن يوجد في الوقت الحاضر أبناءٌ في هذه العائلات، ولكن مَن يدري فهُمْ، أيضًا، قد يموتون يومًا في ساحة الشرف. وعلى كلٍّ، فإنِّي واجدٌ لا محالة حلًّا. ولا أعتقد أنني أسأتُ إلى أحدٍ أو

اتَّخذني عدوًّا له، ثم ينبغي ألَّا ننسى أنَّ عدد الأرامل في تزايُد. المهم، لا داعيَ للعَجَلة، وعندي الوقت كلُّه لأُعيد التفكير مليًّا في المسألة. فهناك مساحةُ الحقول، والروابط العائلية؛ لا بد من ضبط المعدل.»

وجاء رنينُ الهاتف ليتردَّد فجأةً من المكان؛ فما كان منه إلا أن ترك البطاطس التي كان يقشرها تسقط من بين يدَيه، فتسقط في الرَّماد.

حملها ومسحها في كُم قميصه وهو ينهض بصعوبة، ثم ينزل الدرجاتِ القليلة نحو الأرض الوطيئة. تناوَلَ السمَّاعة بأطراف أصابعه، وبنوعٍ من اللامبالاة التي تُرافق هذه المهنة، أجاب بصوتٍ خائر؛ غيرَ أنَّ تعبيره ما لبث أن اخشوشن وانقبضتْ أصابعه التي كانت تُمسك بحبَّة البطاطس، وأخذت في الارتعاش.

بعد أن عبَرَ الجنود القرية، واصلوا سَيْرهم صُعدًا في الجبال. ثم وهُمْ يقومون في الطريق بتدريبات القتال؛ قفزوا فوق الكثير من المرتفعات، وعبروا الغابات. وفي الوقت الذي وصلوا فيه إلى المرحلة الأخيرة من عملهم؛ كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة.

كانت الريح في أشدِّ هُبوبها وكانوا يتنفَّسون بصعوبةٍ محرومين من التغذية، إضافةً إلى أنَّ عليهم أن يعودوا بخطواتٍ سراعًا. وعلى الرغم ممَّا توقَّعه، فإنَّ ستةً من الجنود محكومين بأحكامٍ ثقيلة؛ تخلَّفوا عن الرَّكب. لقد كان تدريبًا خاصًّا يُراد به دراسة العلاقات بين البرد والتعب والجوع. وإذن، فمنذ البداية كان متوقَّعًا أن يوجد بعض المتخلِّفين، وإن تتبَّع الجميع فرقةً طبيَّة. ولكنَّ الذي حدَثَ هو أن خمسة من الجنود أُعيدوا، في حين بقي الجنديُّ السادس مختفيًا في مكانٍ ما.

– إنَّه جائع، وما من شكٍّ في أنَّه يتوقَّف في القرية، وإن لم يحذر منه فسيحاول سرقة الملابس.

وأعاد الشرطي العجوز السمَّاعة. وبكتفَين محنيَّتَين وخطوٍ بطيء، رجَعَ قُرب الموقد. تمخَّطَ وحكَّ لحظةً قُنَّة رأسه العاري ثم رفع عينَيه إلى الساعة! إنَّها السابعة والنصف.

ليست لديَّ أيُّ رغبة في الحركة؛ البرد شديدٌ جدًّا في الخارج، ثم إنَّه لا يوجد ما يُثبت أنَّ في الأمر هروبًا. ولعلَّه في هذه العاصفة الثلجية المسعورة، قد أضاع رِفاقه، وتاه في الطريق. أجل، إنَّه لمِنَ الحُمق أن يفرَّ الإنسان أمام هذا الثلج؛ إن آثار خطواته ستخونه وسيُقبض عليه، إنه شيءٌ بديهي، من المؤكَّد أنَّه تاه. وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد أن يكون قد مات في هذه الساعة من البرد. اللهم إلا أن يكون مُراهنًا على فعلته بما يُشبه «جُرمًا مع

سبق الإصرار». وأخذت الريح تهدأ، ولا شكَّ في أنه وقَعَ في الشرَك. أمَّا الجرائم التي تنجح فلا وجود لها. أمَّا أنا فإنَّ ما تلقيتُه هو معلومة وليس أمرًا، ليقُل الآخرون ما شاءُوا.

فحالة هذا الجندي من اختصاص الشُّرطة العسكرية، وإذا قُورن بسجينٍ في حالة فرار؛ فإنه لا يَعدُو أن يكون هَلُوعًا بائسًا ... أوف، هذا لا يَعنيني، ولا أحدَ يجني فائدةً من التدخُّل في شئُون الآخرين! وعلى كلِّ حالٍ، فمَن سمِعَ من قبل عن هاربٍ محظوظ؟

وخُيِّل إليه أنَّه يسمع ضجَّة من جهة باب المدخل؛ فالْتفت بحركةٍ مباغتة، استَرَق السمع لحظةً: لا ضجَّة هنا، وهذا وهمٌ ليس غير. ولكنْ، لِمَ يعصره دفعةً واحدة قلقٌ عنيف؟ لقد كان قلَقًا غيرَ عاديٍّ لم يستطع هو نفسه فَهْمه، بل إنه ضَربٌ من الذُّعر. لم يكُن خائفًا من الفارِّ. لكنْ، الكراهية. هذه الكراهية التي تُلازمه تجاهَ المُجرِمين العاديِّين يحسُّ فجأةً أنَّها لا تحضُر، ويعي توًّا وجودَ كائناتٍ لا تستدعي الكراهية، وهو ما لم يلاحظه من قبل ما دام قد بقي دائمًا في الوضع المريح للشخص المُلاحِق. ولعلَّه يتبيَّن الآن الهوة التي تفصل بين المطارِد والمطارَد؛ فاستجمع جسده واقفًا وهو مأخوذٌ بهذه المشاعر: لن أتسَامَح!

على الرغم من صرخته هذه، لم يكُن القلق ليفارقه. إنه قلقٌ يضاعفه إحساسٌ آخر بهلعٍ شديد. وفي كلِّ الأحوال، فإنَّ ما به هو قلقٌ المُتواطِئ، ولا شكَّ في أنه شعورُ كلِّ أهلِ القرية. بَيدَ أنَّه ما لم يتخلَّص من هذا الشعور؛ فإنَّه هو نفسه سيتسبب حقًّا في شدَّة هلَعِه. «الحقُّ أنني شِختُ.» قال لنفسه، وصعد الدمُ فجأةً إلى رأسه. «إذا كان الوقت قد حان لأُحاكَم؛ فليكن. سأُحاكم، ولن أكون المتورِّط الوحيد.» أحسَّ بحنجرته متيبِّسةً تمامًا ومنقبضة؛ أدار جهاز تهوية الموقد. رفع ياقته لتغطِّي عنقه، ووضع سيفه في حزامه وخرج.

كان الثلج يسقط ناعمًا ويتفتَّت بنعومةٍ مع كلِّ قبضة. ويلاحظ أن خطواتٍ مرَّت من هنا، لكن ليس ثمَّة قُدرةٌ على تمييز الأحذية. بعد الزاوية مباشرة، حيث يوجد متجر الأسماك، يقع بيت العمدة، الوحيد بين بيوت القرية الذي له نوافذ تطلُّ على الجهة الغربية. وكانت الأضواء تغمره، ومن الخارج يُسمع ضحكٌ صاخب، لعلَّ مصدره بدون شكٍّ هذا المسئُول الأعلى التافه؛ كالمعتاد لم يدخُل من الخلف كدأبه، ولكنه فتَحَ باب المدخل دفعةً واحدة دون أيِّ استئذان. وفي الغرفة بدا الجوُّ رائقًا، وسمع صوتَ أوانٍ فخَّارية تُجمع بسرعة، يغطِّي عليها الصوتُ البطيء للعمدة.

– مَن الزائر في هذه الساعة؟

– «أمهلوني قليلًا لتعرفوا المفاجأة التي أحضرها لكم.»

ورفَعَ مساعدُ العمدة رأسه وهو يقول مستفسرًا: أوَليس هذا صاحبنا الشرطي؟

– هيَّا ادخُل، ادخُل. استدعاه المسئُول الأعلى بدوره.

– لقد حدَثَ شيءٌ مزعِج.

– ماذا هناك؟

– ستحكي لنا هذا فيما بعد، ادخُل واشربْ كأسًا.

– إنه جنديٌّ فارٌّ، لقد فرَّ في «الكتياما».

– فارٌّ؟ وبلَعَ المسئُول الأعلى ريقه مُلقيًا بنظراته من تحت نظَّارته.

– إذا كان نازلًا من الكتياما، فلا بدَّ له أنْ يمرَّ من هنا، أيًّا كانت وِجهته.

– هذه هي المعلومة التي تلقيتُها، ويبدو أنَّه يقصد القرية.

– يقصد؟ وارتعش العمدة مُدخِلًا سبَّابته في منخر أنفه الطويل.

– يبدو أنَّه مُنهَكٌ من الجوع.

– يا لها من قضيةٍ مزعِجة!

– لا!

وواصَلَ المساعِد كلامَه بمرحٍ مقاطِعًا العمدة: إنَّ الفارِّين كلَّهم غير وطنيِّين. من المؤكَّد أنه نذل، وبالتفتيش في الجبل سينتهي الأمر بالقبض عليه.

– ولكنْ يبدو أنه يحمل بندقية، ولأنَّه جائع فقد يُصبح خطرًا.

وباغتَهم صوتُ صرير سلسلة؛ فالْتفتوا بحركةٍ واحدة. كان عقربُ الساعة يدنو من الثامنة تمامًا، وعاد المسئُول الأعلى إلى وضعه نافد الصبر: وإذن، ماذا سنفعل؟

– سنقبض عليه ونضربه حتى الموت!

كان مساعد العمدة وحده مُهتاجًا. والحقُّ لم تكُن ثمَّة غرابةٌ في هذا؛ فهو الرَّجُل الوحيد في القرية كلِّها، دون سنِّ الأربعين، الذي لم يُستدعَ إلى الخدمة العسكرية. وعلى الرغم من كلِّ شيء تحدَّث هذه المرةَ بنبرةٍ أكثرَ اعتدالًا وشجَّعه الشرطيُّ بهزَّةٍ من رأسه: إنَّك على حقٍّ. وفي الحقيقة، فإنَّ كلَّ مُعادٍ للوطن ليس إلا كلبًا ... ولكنْ ...

وخفض صوته، وبدا في حالةٍ من التفكير: ثم إنه مسلَّح ... مُعادٍ للوطن، جائعٌ، مطارَدٌ ويحمل بندقية، ماذا يمكن أن يحدُث؟

وأشار المسئُول الأعلى إلى المساعد، وأمعن النظر في الشرطي: ماذا ترانا سنفعل؟

– بحقِّ الشيطان كيف العمل؟

وجرَّه العمدة إلى الكلام؛ أفلتتْ منه هذه الكلمات: آمل ألَّا يكون هذا الفارُّ من قريتنا.

ودفَعَ المساعدُ ذقنه إلى أمام: هذا لا يُعقل.

ثم أضاف بحماس: لا شكَّ في أنَّه قادمٌ من الجنوب!

– ولكن لماذا لَاذَ بالفرار؟ وفي هذا البرد!

– حقًّا لماذا؟ ولا يوجد ما يساعده على الخلاص. ما أشقى آباءه!

– ولكنْ، أتعلم أنَّ أرملةً في إحدى القُرى خبَّأتْ عندها جنديًّا فارًّا أكثر من شهرَين.

– إنها حكاية قديمة! أمَّا اليوم فإنَّ مِثل هؤلاء المُعادين للوطن، لا وجود لهم!

– إمم، لا شكَّ أنَّك محقٌّ.

«يا لهؤلاء! كيف يرتعدون؟ لشدَّ ما يخافون من أن يتورَّطوا! وما داموا يعرفون؛ فليس بمُستطاعهم عدم المبالاة. لا يمكن؛ إذ حتى اليد التي ستمتدُّ لغلق الأذنَين، ستسمع صرخات مَن يطلب النجدة ... ومجرَّد غلْقِ الأذنَين، هو علامة على التواطؤ ... وباختصارٍ، فإنَّهم غارقون أيضًا حتى العُنُق.»

– إذا سمحتُم — قال الشرطي بصوتٍ بطيء — ينبغي إعلام الناس وتوجيه التعليمات ... هناك فارٌّ، وعليهم أن يلزموا مساكنهم ... تمامًا مثلما يحدُث إبَّان الغارات الجويَّة: إطفاء الأضواء، وألَّا يُجيبوا الفارَّ، حتى إذا ما توجَّه إليهم. لأنَّه إنْ وجَدَ جوابًا؛ فسيستغلُّ هذه الطِّيبة، فعلى سبيل المثال: سيطلُب الماءَ أولًا، وإذا قدَّمتموه له قائلين الماء فقط. فسيُطالب بالأكل، ثم بالثياب، وبعد ذلك بالمال، وماذا بعدُ؟ وفي النهاية بان، بان، سيُطلق الرصاص.

ظلَّ الثلاثة الآخرون يحبسون أنفاسهم في انتظار بقيَّة الكلام، ولكنَّ الشرطي توقَّف عن الكلام؛ فغامر العمدة سائلًا: أهذا كلُّ شيء؟

– البقيَّة من شأن الشُّرطة العسكرية.

نهض المسئُول الأعلى واقفًا باديَ الانزعاج.

– الأمر عندي أبعدُ من هذا.

وتوجَّه العمدة لإبلاغ مركزِ الحرَّاس، واستغلَّ مساعِدُه الفرصة لينسحبَ بدَوره.

وفي أقلَّ من ساعةٍ، أشعَرَ جميعَ سكَّانِ القرية بالقضية. وكما يحدُث في حالة الإخطار بهجومِ الإعصار، تَمَترَسَ الجميعُ وراءَ النوافذ، ودعموا بالألواح الخشبية الأماكن والزوايا ذات الخطر المُحتمَل، بل إنَّ بعضهم وضَعَ قُرب سرير النوم مُدًى وعِصيًّا.

بعد انصرام العاشرة ليلًا، كانت القرية كلُّها، ما عدا مركز الشُّرطة، تغرق في ظلامٍ صامت، ويستولي عليها رعبُ فريسةٍ مُطارَدة. وعلى الرغم من هلَعِها، فقد تمكَّنتْ أغلبُ العائلات من الاستسلام إلى النوم.

بقي الشرطي العجوز، الذي يبدو كأنَّه مُختبئًا وحده، مستيقظًا وهو يستمع إلى أقلِّ حركة في الخارج. ومن الطبيعي، لم يشكَّ سكَّان القرية، المنزوين في بيوتهم، في شيء.

في الغداة، مع مطلعِ النهار، وفي الجانب الآخر من هضبةٍ في الجنوب، انطلقتْ صفَّارة إنذارِ قطارٍ برنينٍ حادٍّ، ولم تتوقَّف. بدَت السماء منخفضةً، وانتقلت هذه الإشارة المشئُومة لتنتشر من بيتٍ إلى بيت. حتى إنَّها أيقظَت السكَّان جميعهم، والذين فهموا الأمر أزاحوا الحواجز فورًا، وفتحوا الشبابيك.

أمَّا الشرطي العجوز، بعينَيه المحمرَّتَين جرَّاءَ السَّهر، فقد اقترب من النافذة القائمة جهةَ الجنوب وبصره مثبَّتٌ على الهضبة، حيث تتبين له بوضوحٍ علامةٌ رمادية خفيفة تخترقها مباشرة. ثم توقَّف صفير القطار، وبعد قليلٍ وصَلَ المساعد واضعًا تحت ذراعه حِذاءَين للتزلُّج، وبرفقته اثنان من سكَّان القرية.

– يبدو أن أحدًا قد رمى نفسه فوق سكَّة القطار، وربما كان هو الشخص المُعادي للوطن الذي تحدَّثنا عنه أمس ... سأذهب لأرى الأمر، هل تأتي معنا؟

– أوه، لا، سأبقى هنا؛ فقَدْ أتلقَّى مكالمةً من المدينة.

انتعل الرجال الثلاثة أحذية التزلُّج، وشاهدوا الأثر الرَّمادي الذي يخترق الهضبة. وبإشارةِ تفاهُمٍ خفيَّة، انطلقوا يقتفون الأثر على الطريق. وابتعد الشرطي العجوز أخيرًا عن النافذة، ثم جلس القُرفصاء أمامَ الموقد.

ظلَّ على حاله تلك إلى أن عاد المساعد الذي بقي صامتًا في انتظار أن يصحو الرَّجل العجوز. غير أنَّ هذا الأخير لم تبدر منه أيُّ حركة. وحين همَّ المساعد بالانصراف، سمِعَ فجأةً مَن يقول: وإذن ... لعلَّك رأيتَ؟ همَسَ الشرطيُّ وهو يفتح عينَيه.

– أجل، لقد رأيتُ.

– ها، حسنٌ.

– وأنت، هل كنتَ تعرف؟

– نعم، كنتُ أعرِف.

– وعليه؛ فأنت مَن أرسله، إلى هناك؟

– إمم ... لا، أنا ... سيدي المساعِد ... هل ترى أنني خجِلٌ ... كان بوُسعه أن يفعل هذا بعيدًا عن بيتي ... فهل هو تحدٍّ لي؟

ثم إنَّ حقيرًا كهذا لا يمكن أن أعدَّه ابنًا لي ... لكنْ، قُل لي هل لك أن تكتم الأمر عن سكَّان القرية؟

– الحقيقة إن الرجلَين اللَّذَين رافقاني، على علمٍ بالموضوع.

– أجل، أجل. وعلى كلٍّ، فأنا بدوري سأتحمَّل مسئُوليتي.

– بالنظر إلى أن اللَّذين كانا معي يعرفان.

– إمم ... بلا شكٍّ.

– لم يكُن هناك ما يعيب في طريقة موته؛ لقد كانت البندقية متروكةً جانبًا، معلَّقةً على غُصن شجرة.

– هكذا.

– هناك شيءٌ آخر، ربما كان من الأفضل محوُ الآثار التي تحت النافذة.

– إمم، نعم.

بعد حوالي عشرة أيام، غادَرَ الشرطيُّ العجوز القرية.

في يومٍ جِد حارٌّ يكاد يُذيب الحُلم
جاءني حلمٌ غريب،
والقبَّعة وحدها عادت
في بداية الظهيرة.

قصص صينية

الجحيم والمَطهَر

كويو

الجحيم والمطهر

كان يوان زشي ينتمي إلى بلدةِ شاندونغ، وتبدو عليه سيماءُ الفطرية والغباء، ولم يكُن محصِّلًا لأيِّ تعليم، وإن توفَّر على معرفةٍ جيدة بالموروث، وجهده سيصرفه كلَّه في استغلال أرضه. في نفس القرية، كان هناك شخصٌ يُدعى ميو عيِّن في مَنصِبٍ وظيفيٍّ في منطقة مين، غير أنَّه لم يكُن لديه ما يساعده للالتحاق بوظيفته؛ فطرَقَ باب زشي ليقترض منه مائتي أونسة فضيَّة. وبما عهد عن زشي من كرمٍ؛ فإنه استجاب لطلب ابن بلدته دون أن يطلب منه الإمضاء على وصلٍ بالدَّين.

في نهاية عهد شيشنع (١٣٤١–١٣٦٧م) تعرَّضتْ بلدة شاندونغ للخراب؛ بسبب الاضطرابات، وبسبب النهب. ألفى زشي نفسه لا يملك شَروَى نقير.

في هذه الفترة، كان شن يودنغ يقوم بإدارة فوجيان، والمناطق السبع لبلاد مين تعرف الكثير من الرخاء.

وحمل زشي ما تبقَّى له من حِملٍ خفيف، وصحب زوجه وأولاده آخذِين طريق البحر نحو فوزو بنيَّة اللقاء بالسيد ميو، والاستغاثة به على ماله.

ولدى وصوله، علِمَ فعلًا أنَّ السيد ميو هو بالفعل أحد معاوني شنع يودنغ، وأنَّه بحُكم مهامِّه الكبرى، يمتلك سُلطانًا قويًّا. ويتمتَّع، بناءً على هذا، بامتيازٍ وقوة معتبرتَين، ويقطن في إحدى أهمِّ الإقامات.

ولقد سُر زشي بهذا كله أيَّما سرور، بَيدَ أنَّ الشقاء الذي أصابه والسفر الطويل والمُمضَّ الذي قطَعَه نالا منه شديدًا؛ فثيابه استحالت خرقًا وبدا فاقد القُوى، بائس المظهر ممَّا جعله لا يجرؤ على المسارعة للقاء ميو ... بادر أولًا بتأجير سكَنٍ في المدينة، أنزل فيه زوجه وأطفاله، وأصلح من حال ملبسه بصورةٍ لائقة. وبعد أن تحيَّن فرصةَ يومٍ ملائم، قصد السيد ميو.

واتفق أنَّ هذا الأخير، كان خارجًا للتوِّ من منزله. وقد اضطرب زشي قليلًا أمام قامته. وأظهر ميو، للوهلة الأولى، حالَ مَن لا يعرف مَن يقابل. وليس إلا بعد أن عيَّن زشي مسقطَ رأسه وأفصح عن هويته، حتى أبدى الاعتراف به معتذرًا وقد أخذته المفاجأة، ثم استقبله في البيت حسب أصول الضيافة المرعيَّة. ولوقتٍ من الزمن استغرق المُضيف والزائر في شُرب الشاي ... وبقي الأمر عند هذا الحدِّ.

وفي الغداة، ذهب زشي مرةً ثانية للقاء ميو، فقدَّم له هذا الأخير ثلاثة أقداح من الخمر لا غير. وبلا مبالاة، تظاهَرَ بأنَّه لا يُلقي بالًا لَمن أحسن إليه في الماضي. وبالنسبة للباقي، فلم يصدُر منه أي تلميح للمائتي أونسة من الفضة.

وما إن عاد زشي إلى مسكنه البارد والبائس، حتى تلقَّى شديدَ التعنيف من عائلته: «إنَّك تنقَّلتَ في ألف مكان — قالت زوجته مشتعلةً غضبًا — من أجل طلَبِ النجاة من هذا الشخص، وما هي النتيجة؟ ظاهريًّا يبدو أنَّك تركتَ نفسك تستسلم مقابل ثلاثة أقداح من الخمر الرديئة دون أن تنتهز الفرصة لتُطلق كلمةً واحدة حول موضوع الدَّين! والآن، ماذا بوُسعنا أن نفعل؟»

وألفى زشي نفسه مضطرًّا ليُعيد الكرَّة في اليوم التالي. ولكنه هذه المرة شعَرَ بأنَّه غيرُ مرغوبٍ فيه. وفي اللحظة التي كاد ينبس فيها ببنتِ شفة، تدفَّق كلامُ ميو مندفعًا بلا تردُّد: «في الماضي أقرضتني مبلغًا من المال، وأنا لم أنسَ لك ذلك؛ إنَّ الأمر منحوتٌ في قلبي! والمهمَّة التي أشغل حاليًّا صعبة، والراتب الذي أتقاضاه ليس ذا بال، ولكن بما أنك صاحبٌ آتٍ من بعيد، فلا يمكن بحال أن أنسى جميلك عليَّ. وكل ما أطلبه منك هو أن تُعيد إليَّ الوصل، وعندئذٍ سأردُّ لك بالتدريج المبلغ المتعلِّق به!»

– ما هذا؟ ردَّ زشي مستغربًا ومأخوذًا بالغضب، ألسنا من قريةٍ واحدة، وأصدقاء حميمين منذ الطفولة؟ وحين شرحتَ لي مبلغ تضايُقك وحاجتك؛ فأنا لم أطلب منك، بالطبع، أيَّ وصل! فلماذا، إذن تحدِّثني اليوم بهذه الطريقة؟

وهنا جاء رد السيد ميو حادًّا: «لا جدال في أنه كان هناك صكٌّ اعتراف بالدَّين. وخشيتي الوحيدة أن تكون أنت مَن ضيَّعه عقب ما حلَّ من حروب وحملات نهب! وعلى كلٍّ، فسواءٌ كان بحوزتك أو لا؛ فهذا ليس شيئًا ذا أهميةٍ قصوى بالنسبة إليَّ ... ولكنْ عليك أن تترك لي فقط بعض الأجل حتى يكون بمقدوري أن أفعل ما أستطيع!»

وانصرف زشي محتقنًا غضبًا وحقدًا أمام مثل هذا الخطاب الذي وجَّهه إليه، وإزاء هذا اللؤم. وتمامًا مثل جديٍّ حُجز قرناه بحاجز حظيرة؛ فإنه ما كان يعرف أن يتقدَّم أو يتأخَّر.

بعد خمسة عشر يومًا على هذا اللقاء، تحامَلَ زشي على نفسه وتوجَّه إلى مَدينِه فاستُقبل بكلامٍ معسول، ولا قلامة ظفر بعد ذلك! ومن شدَّة التهرُّب والأعذار المائعة، نجح ميو في جرجرة الموضوع طيلة ستة أشهُر أخرى.

في وسط السوق، كان هناك موضع صغير للخطابة. وحين كان زشي يتوجَّه إلى السيد ميو، يتوقف قبالته؛ لأنَّه يقع في طريقه، ليأخذ نفَسًا من الراحة. وكان الموضع في عُهدة عجوز يُدعى كسوان يوان. متصوِّف طاوٍ تبيَّن محجته، وكثيرًا ما لاحظ المتصوِّف ذهابَ وجيئة زشي. ومن كثرة مروره، راحا ينخرطان في المحادثة، وتألَّفتْ بينهما صداقةٌ عظيمة.

كان الوقت شتاءً والعام الجديد مُقبِل؛ فتوجَّه زشي، وقد ضاقتْ به أسباب العيش وانقطع عنه القُوت، توجَّه إلى السيد ميو ووقَفَ أمامه بائسًا باكيًا.

«أنت تعرف أننا على وَشْك العام الجديد، وزوجي وأطفالي يُقاسون الجوع والبرد، ولم يبقَ في جيبي فِلسٌ واحد ولا في مسكننا حبَّةُ رزٍّ، والمال الذي اقترضتَه سابقًا ما عادت لي الجُرأة للمطالبة به اليوم، وكلُّ ما ألْتمسه منك حاليًّا سطلُ ماءٍ يُنقذ سمكةً من الجفاف!

هو آنية طعام لَمَن يستبدُّ به الجوع منذ ثلاثة أيام. ستكون هدية لائقة بصديق. إنني أترجَّاك وأتشفَّع بك أن تُشفق عليَّ من باب الصدَقَة!»

عند هذه الكلمات انكفأ أمامه على الأرض فأنهضه ميو، وشرع يعدُّ الأيام على أصابعه ليواسيه: «لم يبقَ إلا وقتٌ وجيز على ليلة العام الجديد. انتظر ببعض الصبر في بيتك؛ سأقتطع من راتبي كيسَين من الرز وسبيكتَين من الفضَّة، وسيصلك هذا الحمل مع رجالي، وسيُصبح في حوزتك ما تقضي به العام الجديد، وآمل ألَّا تؤاخذني على تواضُع هذه الهديَّة.» وبالإضافة إلى هذا، وهي التي ألحَّ عليها ميو كثيرًا، فإنه لا ينبغي لزشي بأيِّ ثمَن أن ينتظر الحمل في الخارج ...!

ولقد أجزل له زشي الشُّكر وقفل عائدًا بسرعة إلى أهله ليُسرِّي عنهم ويُغدق عليهم بوعود ميو. وفي اليوم الموعود، كان البيت كلُّه في حالة انتظارٍ متوهِّجًا بالأمل. زشي جالسٌ بكامل الوقار فوق سريره، مُعطيًا الأمر لابنه الأصغر كي يقف مترقِّبًا عند باب الحي. وبعد وقت وجيز، دخَلَ الصبيُّ راكضًا ومُعلنًا: «هناك شخصٌ قادم على ظَهره حِملٌ من الرزِّ!» وهبَّ زشي مباشرةً لاستقباله.

لكنَّ الرَّجل مرَّ أمامهم دون أن يُعيرهم الْتفاتًا، وفكَّر زشي بأنه ربما لم يتعرَّف على البيت؛ فلحق به واستفسره، فجاء جواب الحمَّال: «إنه غرضٌ لمحصِّل ضرائب المُلَّاك الكبير زانُغ!» وبعد حين عاد الصبي ليعلن مرةً ثانية: «هناك رجُل يصل بالفضة!» فخرج زشي لانتظاره، لكن الرجُل مرَّ أمام الباب دون أن يدخُل؛ فلحق به زشي مستفهِمًا، ليأتيه الجواب: «إنها هديةٌ من نائب عمدة إلى أحد الزوَّار العابرين.»

فقفل راجعًا دون أن تصدُر عنه كلمةٌ واحدة. وقد تكرَّر المشهد لمرَّاتٍ أُخرى إلى أن نزل الظَّلام دون أن يقدُم الرسولُ المُنتظَر. وفي اليوم التالي المصادف للعام الجديد، انتبه لأمره؛ لقد خُدع إذن! وألفى نفسه محرومًا خاوي الوِفاض بادي الإنفاض أمام زوجه وأبنائه وهُمْ يبكون، وعندئذٍ فقَدَ كلَّ سيطرة على غضبه. وبسريَّة تامَّة، أخفى في نِطاقه خِنجرًا، وجلس ينتظر الفجر. وما إن صاح الدِّيك وخفَتَ ضاربُ الطبل حتى خرج قاصدًا إقامةَ ميو بنيَّة انتظاره أمام بيته ليطعنه.

في مثل هذه الساعة، لم يكُن الفجر بعدُ قد شرع يُضيء على الشرق. والأزقَّة بعدُ مُقفِرة. ووحده العجوز كسيو يوان أوقد في مجلسه بالساحة شمعدانًا؛ ليتلو صلواته. ومن موقعه، أمكنه أن يرى زشي متبوعًا بفِرقة من عشرات الشياطين ذات القامات الغريبة. بعضهم كانوا يحملون خناجر وسيوفًا وبعضهم الآخر عِصيًّا أو مناجل، عراةً ومجرحين وبهيئة مُفزِعة ورهيبة.

وبما لا يتجاوز ما يكفي لتناول مقدار آنية من الرزِّ، كان زشي عائدًا ومحفوفًا هذه المرَّة، بمائة محارب ذوي قبَّعاتٍ ذهبية ومُنطَّقين بحزاماتٍ جلديَّة فخمة. كان مظهره وديعًا ومريحًا، وعليهم سيماء الهدوء والسلام.

وفكَّر العجوز كسيو يوان بأن زشي ربما يكون قد مات الآن. ولذلك قرَّر أن يذهب إليه بمجرد ما يُنهي صلواته ... وما إن وصَلَ؛ حتى وجَدَه في أنعم صحة. ثم ما كان يجلس، حتى بادره بالسؤال: «أين كنت تتَّجه فجرَ هذا اليوم؟ وكيف حدَثَ أنَّك مررتَ على عجلٍ في الذهاب، وبكامل الهدوء لدى العودة؟ أريد أن تشرح لي هذا كلَّه!»

ولم يجرؤ زشي على إخفاء شيء، وقصَّ عليه الأمر: «إنَّ خداع السيد ميو وضعني في أشدِّ الضِّيق. والحقيقة أنني هذا الصباح أخفيتُ في ثيابي سلاحًا حادًّا وعولتُ على وضع حدٍّ لحياته. ولكنْ ما إن وصلتُ إلى بابه، حتى انتابتْني هذه الفكرة: «لا جدالَ في أن ميو أذنب في حقِّي. ولكنْ أيُّ جُرمٍ اقترفه زوجه وأولاده؟ وبالإضافة إلى هذا؛ فهو يتكفَّل بأمِّه العجوز. فإن هممتُ الآن بقتله؛ فأين ستجِدُ عائلته السند؟ وإنه لمن الأفضل تحمُّل آثام الآخرين على أن أكون أنا نفسي آثمًا.» ... وبعدها عقدتُ العزم على الصبر وقفلتُ راجعًا.

وما إن سمِعَ كسيو يوان هذا الكلام حتى خرَّ بجسمه إلى الأرض ... مهنِّئًا زشي: «إنَّ سعادةً عظيمة في انتظارك، يا بُنيَّ وإنَّ العناية الربانية لتعرف ذلك من الآن.» واستفسر زشي عن سبب هذا الكلام؛ فشرح العجوز: «حين سكنتْك النوايا السيئة، حفتْ بك أشباح مثيرة. ولكن ما إن الْتفتَّ صوبَ الخير، حتى دنتْ منك أرواح الخير؛ مثل الظِّل يتبع الجسد والصَّدى يردُّ على الصَّوت. ومن هنا، فإنه من البديهي، سواءٌ كنت في قعْرِ غرفة مُظلِمة أو في أشدِّ أوقات الضِّيق، إنَّه ليس من الملائم لا الإنصات للأفكار القبيحة ولا اقتراف جرائمَ ضدَّ الفضيلة!»

ثم سرَّى عن زشي بأنَّه سرَدَ عليه تفاصيل ما تكشَّفَ له، وفرَّج أيضًا عن كُربته بأنْ قدَّم له رزًّا ومالًا.

ولم يمنع هذا زشي من أن يبقى عند حافة اليأس. وحين حلَّ المساء، توجَّه إلى أسفل جبل الأرواح الثلاث وألقى بنفسه في البئر ذي الثماني زوايا القائم هناك. بَيدَ أنَّ الماء صار فجأةً محجوزًا من هذا الجانب وذاك بأحجارٍ ملساء يخترقها ممرٌّ ضيِّق يسمح بالمرور. وتقدَّم زشي متلمِّسًا طريقه، وبعد مئاتٍ من الخطوات اجتاز نهاية الجدار، وانفتح الممرُّ على مجازٍ حيث الشمس والقمر يلمعان، وحيث هناك عالمٌ آخر تمامًا. وعاين زشي قصرًا منيفًا تعتليه لوحةٌ كُتب عليها بحروفٍ ذهبية:

الإقامة السعيدة للجبال الثلاثة

ورفع حالمًا عينَيه، ودخل عابرًا أروقةً مُضيئة وصامتة وقاعاتٍ عتيقةً، ومتأمِّلًا حوله دون أنْ يحسَّ بحضورِ أيِّ وجودٍ بشري، ووحدها كانت ترنُّ في مسمعه دقَّاتٌ غريبة لنواقيس كأنَّها آتيةٌ من أعلى عِليِّين. ومن شدَّة ما به من جوع، كفَّ عن التقدُّم. وإذْ بلغ به العياءُ مبلغه، استسلم للنوم قُرب مذبحٍ من حجر، وفجأةً ظهَرَ شيخٌ طاوٍ لابسًا جبَّةً واسعة بلونٍ لازوردي ومتمنطِقًا بحزامٍ من يشْبٍ يُضيء مثل القمر، وتقدَّم نحوه وهو

يدعوه للاستيقاظ، ثم سأله ضاحكًا: «هل وجَدَ سيدي الفقيه السفر على ما يُرام؟» ضمَّ زشي يدَيه إلى صدره بأدبٍ وأجاب: «بالنسبة للسفر، لم يعُد لديَّ ما أشتهيه. أمَّا لقب الفقيه هذا، فأريد أن أعرف بأيِّ احتقارٍ يتعلَّق الأمر؟»

– ألَا تتذكَّر بأنَّك حرَّرتَ الفتاوى الإمبراطورية لمنطقة التبت في قصر القداسة العُظمى؟ ردَّ الطَّاوي.

– إنني لستُ سوى واحدٍ من الناس من شاندونغ — عقَّب زشي — واحد من الأشقياء. على مدى أربعين عامًا، بقيت لا أعرف شيئًا عن الكتب. وفي حياتي بأكملها، لم أزُر العاصمة لأتمتَّع بمباهجها! وإذن، كيف يمكن لمسوَّدات الفتاوى، هذه، أن تعنيني؟

– «لا شكَّ أنه الجوع ما يجعلك في هذه الحال، ويمنعك من استرجاع الماضي!»

وعند هذه الكلمات، أخرج الطاوي من كمِّه خوخًا وإجاصًا. جعل زشي يبتلعها، وواصل: «إنَّها إجاصاتٌ من معدنٍ وخشب» وخوخًا من نار. ومَن أكل هذه الفواكه السِّحرية؛ فإنه يُمسي قادرًا على معرفة الماضي والمستقبل!»

وحين أنهى زشي الأكل، بدا كمَن انبثق منه كشفٌ نوراني. وراح يتذكَّر، كما لو أنَّ الأمر البارحة، العهدَ الذي كان فيه مثقَّفًا كبيرًا يحرِّر مسوَّدات الإمبراطورية للتبت في قصر القداسة العُظمى لدادو، عاصمة المغول! وعندئذٍ استفسر الطاويَ: «أيُّ ذنبٍ اقترفتُه في وجودٍ سابق لأتحمَّل مثل ما حلَّ بي من نقمة؟

– إنَّك لم تقترفْ أيَّ ذنب قَط! بَيدَ أنَّك حين كنتَ تشغل مهمَّتك الرسمية، مزهوًّا بمعرفتك الأدبية؛ رفضتَ أن تُخرج من الظُّلمات المواهبَ الشابَّة، ولهذا جُعلتَ في الحياة الحاضرة غبيًّا وأميًّا. وبسبب أنك، وأنت المغترُّ بأهمية موقعك، لم تفتحْ صدرك للمتعلِّمين الضائعين؛ ترى حالك اليوم وقد آل إليه التِّيه والافتقار إلى كلِّ سَنَد!»

وهنا راح زشي يتحدَّث عن كبار موظَّفي عهده، ويتساءل مستغرِبًا: «إذا كان الأمر على ما تقول؛ فماذا سيكون عقاب الوزير الفلاني، الذي لم يكُن ينفِّذ أيَّ عملٍ إلا تحت تأثير الرِّشوة؟»

– «هذا — قال الطاوي — هو الملك الشيطان للمدنيين في العالم السفلي. وهناك عشرة أفران لصَهْر الأموال التي جناها غشًّا. وعلى كلٍّ، فقد شارف نهايةَ سعادته، وما ينتظره هو مِحَن سُجناء الجحيم!

– وذاك، نائب رئيس الوزراء، الذي لا يعرف هُدنة؛ يقتل ويفتك بالأبرياء، أيُّ شرٍّ سيناله؟

– ذاك الملك الشيطان للمجرمين الكبار. وهناك ثلاثمائة محاربٍ في العالم السفلي بصلعات برونزية وخوذات حديدية يساعدونه في الفصاعة. والآن فإنَّ مصيره وشيك وإلى انطفاء. وما ينتظره هو أن تُفكَّك أطرافه ويقطَّع إربًا.»

وواصَلَ زشي تعداد أسماءٍ عديدة من المسئُولين يعرف خطاياهم ويستفسر عن ألوان العقاب الذي سيطالهم؛ فيأتيه جواب الطاوي أفظعَ حالةً بحالة. وأخيرًا، أشار إلى غشٍّ مدينه السيد ميو.

– «أمَّا هذا — أجاب الطاوي — فهو مسئُول خزينة الجنرال وانغ، فبأيِّ حقٍّ يتصرَّف في ثروات الآخرين؟ ... وعلى كلٍّ، فقبل انصرام ثلاثة أعوام ستهز أحداث خطيرة العالم محمَّلة بكوارث، ما أفزعها! وإنَّ من المُلائم، إذن، أن تختار لك مكانًا تُقيم فيه بمنجًى عمَّا سيحدُث. وإلَّا، فيا للهَول!»

فترجَّى زشي الطاوي أن يرشده إلى ملاذٍ يقيه ويلاتِ الحُروب.

«قال الطاوي: هناك فوكنغ وهي لا بأس بها، ولكن فوننغ أفضل بكثير ... وبعد هذا، نبَّه الطاوي زشي: «ها قد مرَّ وقتٌ طويل وأنت هنا، ولا شكَّ أنَّ أسرتك قلِقةٌ عليك؛ فعليك أن تعود حالًا.»

وإذ بدا زشي حائرًا؛ أيَّ اتجاه يأخذ؟ أرشَدَه الطاوي إلى ممرٍّ ضيِّق ليتَّبعه؛ فأخذ طريقه إلى أن وجَدَ نفسه في الجهة الأخرى من الجبل. وحين عاد إلى بيته، تبيَّن أنَّهم بانتظاره منذ خمسة عشر يومًا انصرمتْ.

وحمَلَ، على عجلٍ، زوجَه وأولاده قاصدًا قريةً بضواحي فوننغ، حيث استقرَّ. وشرع يقلِّب الأرض؛ ليزرع له بستانًا. وبينما هو يفعل، رنَّ في مسمعه صوتٌ معدِني، وإذا به يستخرج أربعَ سبائك من الفضَّة كانت مطمورةً في باطن الأرض ... وفي وقتٍ لاحق، وحين سيطر زانغ شكسي على مقاليد الأمور وعلى الأختام، لدى استسلام من كانت بيده، حاكم إقليم تاش تيمور، ومع اقتراب جيوشه القوية من المدينة؛ وقع الحاكم الإقليمي شي يودنغ في الأَسر. ومن الموظفين الآخرين في حاشيته، لم يستطع العديدون إنقاذ رأسهم من الموت. أمَّا السيد ميو فقَدْ نُفِّذ فيه حُكم الإعدام، على يد الجنرال وانغ، الذي استولى على كلِّ أملاكه.

وبتعداد السنوات والشهور، فإنَّ الأمر استغرق بكامل الدقَّة ثلاثة أعوام بعد نُبوءة الطاوي التي تحقَّقتْ بالتمام والكمال.

سيد السعادة والثروة

كويو

سيد السعادة والثروة

في عام ١٣٤٦م من عهد زيزنغ كان المتعلِّم تايزوهي يورين، وقد ناء كاهله بالفقر والخَصَاص. لا يعرف أين يولِّي وجهه ليضمن قوت يومه.

وهكذا ألفى نفسه يقصد معبد إله الأسوار. وهو يعبُر الرواق الشرقي، عاين لوحةً خُط عليها:

مكتب السعادة والثروة.

وأمام هذه اللوحة الإلهية استكان إلى الصلاة، وهذه صلاته: «لقد عشت خمسة وأربعين عامًا لا يزيد ما أملكه عن جَلْس للشتاء وجبةٍ خلِقةٍ للصيف. وغذائي يقوم على صحنٍ من مرق الرزِّ صباحَ مساء، علمًا بأنني لم أعرف أيَّ تبذير ولا اقترفتُ أيَّ إثم!

أعيش في قلقٍ دائم، وفي شاغلِ الوقوع ضحيةَ شدَّة العوز. بل إنني، وحتى في فصول الشتاء الرفيقة، أُقاسي من البرد. وخلال سنوات الغِلال الوفيرة، أعاني من الجوع، فلا أحار صنيعًا؛ فليس لي صديقٌ أجِدُ عنده المَلاذ، ولا البقاء في بيتي يُسعفني من التضوُّر من الجوع! ثم إنَّ زوجي وأولادي يحتقرونني أنْكَى الاحتقار، ومُواطنيَّ قطعوا كلَّ صِلةٍ لهم بي. ومني قلقي وتعاستي، ليس لي مَن أشكو إليه حالي.

ولقد سمعتُ من أقوال الناس بأنَّكم القوة الإلهية العُظمى المسئُولة عن الثروات والمكارم، وأنَّ يدَكُم تقبض على أمرِ تصريف الثروة، وأن الذين يقصدونكم سرعان ما يُستجاب طلبهم، وأنَّ مَن يوجِّهون الدعاء إليكم لا يخيب لهم أملٌ قَط!

ولهذا فإنني لا أملك، رغم كلِّ تأنيبٍ قد أتعرَّض له بيني وبين نفسي، إلا أنْ آخُذ مُطلَق الحرية في أن أترجَّاكم، وأن أخشع أمام مذبحكم ملتمِّسًا منكم بكلِّ امتنان الكشفَ عن سِر مستقبلي، وحوادث الأيام التي تنتظرني! إنَّ مثل هذه الإشارة ستُخرجني من ضياعي، وستنتزعني من غياهب تِيهِي؛ ذلك أنني، شأن سمكةٍ تموت من الجفاف وتتوقَّع أن يُهرق فوقها سطلُ ماءٍ لتستعيد الحياة، مثل طائرٍ مَهيضِ الجَناح يبحث عن غصنٍ يحطُّ عليه! ولسوف أكون طوعَ أمركم وإشارتكم السامية؛ فإنْ كان الماضي بلا عودة والمستقبل قد فات الأوان لتعديله، وإنْ كان مصيري التعيس قد أحكم وضْعَه نهائيًّا؛ فإنني آمُل، كذلك، أن تتفضَّلوا بتنويري ببعض الجواب، عساني أكون على علمٍ مقدَّمًا بما سيعترض سبيلي.»

وبعد الانتهاء من هذه الصلاة تراجَعَ قليلًا إلى الوراء، وتقرفص قُبالةَ المذبح.

بَيدَ أنَّه في هذه الليلة، في الرواقين الشرقي والغربي، على اليمين وعلى الشمال، وفي كلِّ جنبات المعبد، شعشعَت الأضواء من كلِّ جهة، مع حشدٍ هائل من الشخصيات المتضاربة … ووحده المكتب الذي قصده يورين بقي فارغًا، وبدون إضاءة.

بقي يورين في الظَّلام، وحوالي منتصف الليل سمِعَ صوتَ المنادي متقدِّمًا يفتح الطريق وهو يقترب، وما إن يُوشك على الوصول إلى باب المعبد حتى يتداعى قُضاة كلِّ المكاتب على عجَلٍ لاستقبال الوافدين.

وحين يدخلون يتشكَّل صفَّان من قناديل الغاز، وحاشية تسير في موكبٍ رسمي. هناك أولًا الحاكم، وهو يرتدي جبة القضاء، مُمسِكًا بالصكوك بين يدَيه. يتقدَّم نحو القاعة الرئيسية ويجلس. ونحوه يتوالى مختلف القضاة يقدِّمون له ولاءهم. وحين تنتهي هذه المهمَّة، يتراجعون مُنصرِفين من جديد إلى أعمالهم. أمَّا مسئُول مكتب الثروة والمكارم، فإنه يخرج بدوره من القصر؛ لأنه يُعدُّ واحدًا من حاشية الحاكم، ويكون قد عاد لتوِّه من جلسة في السماء.

يتَّخذ له مجلسًا، ويتقدَّم عدَّة قضاة مكسوِّين بأرديةٍ حمراء أو خضراء؛ لحضور الجلسة وليقدِّم كلٌّ منهم، على حِدَة، تقريرًا عن القضية التي يحقِّق فيها. يبدأ واحدٌ منهم تقريره: «في العائلة الفلانية بالمكان الفلاني، حُفظ ألف كيسٍ من الرزِّ. ومؤخَّرًا دبَّ الجفاف، وزحف طوفان من الجراد؛ ممَّا أدَّى إلى تضاعُف سعر الرزِّ، ومنعَت المقاطعات

المجاورة شراءَ الحبوب. وبين سكَّان الأرياف خلَّف الجوع ضحايا عديدين. وعندئذٍ أقدمَت العائلة المذكورة على فتْحِ مطاميرها لنجدة السكَّان قانعةً بالسعر الأصلي للرزِّ، دون أيَّة محاولة لجني أرباحٍ زائدة. وعلاوةً على هذا، فإنَّها وزَّعت كثيرًا من الطعام على الفقراء والمُعوزين؛ ممَّا ساعد على إنقاذ أعدادٍ كبيرة من الحيوانات البشرية. وإن قداسة هذه المنطقة أعلمتْ مؤخَّرًا مكتبي الذي تشرَّف بإخبار سيادة الحاكم، الذي قام بدوره بإعلام المحاكم السماوية. وقد تقرَّر إطالة حياة هذه الأسرة لمدَّة أربعين عامًا، ومُنحت ستمائة ألفِ مِكيالٍ من الرزِّ.»

وجاء تقريرٌ ثانٍ: «في العُصبة الفلانية من البلدة الفلانية، أظهرَت امرأةٌ وفاءً عزَّ نظيرُه؛ ففي حين كان زوجها على سفرٍ بعيد، أصاب أمَّه مرضٌ فادح، لم ينفع معه علاجُ السحَرة ولا الأطبَّاء. ثم إن المرأة بعد صومٍ وتعبُّد وتقديم قرابين وجَّهتْ دعواتها ... إلى السماء وأعلنت عن استعدادها لتهَبَ جسدَها مقابل جسَدِ المريضة، وأن تقطع قطعةً من لحم فخذها لتغذِّيَها. ومقابل هذا الإخلاص، شُفيت المريضة. وبالأمس جاء من المحاكم السماوية ما يلي: «إنَّ تفاني هذه الزوجة ووفاءها، قد نفذ إلى السماء والأرض. وصِدقُها أدهَشَ الملائكة والأرواح الشريرة! وعليه؛ فقَدْ تقرَّر أنْ تُنجب ولدَين سيحصلان على تعويضاتٍ مالية كُبرى، وسيضعانِ إكليلَ الغار على أهلهم. كما ستُكرس هي كامرأةٍ مبجَّلة ونبيلة.» وقد أبلَغَ الحاكم المسئُول قراراته إلى مكتبي، وبالفعل فقَدْ تمَّ تسجيل اسم المرأة في سجلات السعادة.»

ثم تقدَّم من يتلو تقريرًا ثالثًا: «إنَّ الموظف الفلاني المدعوَّ فلان، والذي بلغ مرتبةً عليا في وظيفة، والذي كان يحصل على راتب مرتفع قد تغافل عن واجباته إزاءَ بلده، وانصرف كلُّ تفكيره وطموحه إلى إرضاء نهَمِه وتحصيل مزيدٍ من الثَّراء؛ فقد قبل ثلثمائة سبيكةٍ ليُصدر حُكمًا ينتهك القانون، وحصل على خمسمائة قطعةٍ نقدية ليجرِّم مواطنًا بريئًا. وقد أحال الحاكم المحلي الموضوع على المحكمة السماوية طالبًا عقابَ المتَّهم. بَيدَ أنَّ القدَر أراد للشخص المعنيِّ نصيبًا وافرًا من السعادة! وهكذا فقَدْ مُنح عمرًا مديدًا من عدَّة سنواتٍ بُغية أن يشهد الخراب الذي سيُهلك عُصبته عن آخرها! والآن، وطبقًا للأوامر، فقَدْ سجَّلتُه في سجلات الشقاء وأنتظر فقط الوقتَ المناسب.» وانطلق رابعٌ يتلو تقريرًا جديدًا: «إنَّ رئيس القرية الفلانية، كان يملك آلاف الدونمات من الأرض، ولكنَّه كان على شرَهٍ لا مزيدَ عليه. وقد جهد لتوسيع ممتلكاته والاستيلاء على أرض جاره. وقد اضطُرَّ هذا الأخير، الذي لم يكُن له من معينٍ ولا نصير، إلى البيع بثمنٍ زهيد. لكنَّ الأدهَى من هذا، هو أنَّه لم يتسلَّم

شيئًا قَط؛ فقد رفض المشتري أن يُنقِده المبلغَ المتَّفَق عليه. ثم إنَّ الضحيَّة مات من أساه وغصَّته! وقد أرسلت المحاكم الجهنَّمية طلبًا إلى مكتبي لإلقاء القبض على المتَّهم ووضعه في السجن، ولكنني علمت أنَّ أمره قد قُضي؛ فقد مُسخ ثورًا وتناسخ عند أُسرة العائلة المنهوبة ليلقى — هكذا — عقابَ أعماله السابقة.»

وحين أنهوا جميعًا تلاوة تقاريرهم؛ فرَكَ قاضي مكتب الثروة فجأةً حاجبَيه، ووسَّع عينَين مندهشتَين، ثم صدرت عنه حسراتٌ طويلة قبل أن يُعلن: «الآن أيها السادة، لقد قُمتم جميعًا بواجباتكم، فكافأتم المحسن وعاقبتم المذنب، وكلٌّ هذا أنجزتموه بكامل التوفيق والسداد. إنما مصير العالم على الأرض كما في السماء، وعهد الإتلافات التي تهدِّد الأحياء والكوارث الوشيكة. كل هذا، وبالرغم من حسن تدبيركم، كل هذا أيها السادة، لا يمكن تجنُّبه!»

– «بمَ يتعلَّق الأمر؟» تساءلوا بصوتٍ واحد؛ فراح يشرح لهم: «بما أنني كنتُ موجودًا في حلبة الإمبراطور السماوي؛ فإنني سمعتُ كلَّ القِدِّيسين يتناقشون في أمور الغيب. وممَّا سمعتُه أنَّه بعد بضع سنواتٍ ستندلع حروبٌ كبرى، وسيسقط آلافُ الضحايا. في هذا الوقت، ما عدا أن يكون المرء قد راكم الأعمال الحسنة والسِّير الحميدة، ما عدا أن يكون على نزاهةٍ عالية، فإنَّ أحدًا لن يُفلت من الهلاك. فكيف يحدُث، إذن، أن يتمتَّع البَشَر بمثل هذه الحماية الهشَّة وأن تكنسهم مثل هذه الكوارث؟»

وتبادل الجمعُ النَّظرَ بحركاتٍ مرتعِشةٍ وقالوا: «لا طاقة لنا بأمورٍ تتجاوز اختصاصاتنا!» ثم تفرَّقوا بعد ذلك، كلٌّ إلى سبيل.

وفي هذه اللحظة فقط، نهض يورين من قعدته من تحت المذبح، وانطلق يشرح أسباب زيارته، وطفق القاضي يختبره بتمعُّنٍ وتطويل، ثم طلَبَ من مُعاونٍ له إحضارَ السجلات التي تفحَّصها بنفسه. وبعد ذلك قال ليورين: «أيها السيد، إنَّ سعادةً عظيمة ومستقبلًا باهرًا ينتظرانك، وإنك لن تُطيل المُكث في حالِ البؤس! ومن الآن، ستعرف يومًا أفضلَ من الذي يسبقه، وسيقودك من الظلام إلى النور.» ورغب يورين في أن يتعرَّف أكثر؛ فأخذ القاضي ريشةً مُثقَلةً بالمِداد، وسطَّر ستةَ عشَرَ حرفًا على ورقةٍ مدَّها إليه؛ فقرأ فيها:

أمام الشمس يسر.
أمام القمر صعود.
أمام الغيم انحطاط.
أمام البريق اختفاء.

وخبَّأ يورين الورقة في صدره، ثم خرج أخيرًا. وحين كان عند مخرج المعبد، كان النهار قد بدأ بالطلوع. وعندئذٍ بحث عن مخبُوئه؛ فلَمْ يعثُر على شيء.

وما إن عاد إلى بيته، حتى بادر إلى زوجه وأولاده يقصُّ عليهم سيرته من باب المواساة.

وما إن مرَّت أيامٌ معدودة، حتى دعاه أحدُ الأعيان الكبار بالمنطقة يسمَّى فو، والملقَّب رينيغ (بريق الشمس)؛ ليتكلَّف بتربية أبنائه مقابل خمس سبائكَ في كلِّ شهر، ضمنتْ له ولأهله يُسرًا لا بأس به.

وفي المجموع، فإن يورين قضى عدَّة سنواتٍ في هذه الخدمة، ثم إنَّ زانغ شاينشج استنفر قوَّاته نحو إقليم جايو. وكلَّف القصر المغولي طوكتو بقيادة الجيش وإخضاع الإقليم، وذلك في الوقت الذي كان فيه الوصيُّ الإمبراطوري دالي يوشا (رمل القمر) منصرفًا إلى أعمالٍ مختلفة. ولقد كان شخصًا مثقفًا ومقدِّرًا للمتعلِّمين.

واقترح عليه يورين، وهو يرتمي بين قدمَيه، خطةً استراتيجية بدا أنَّها حظيتْ بإعجابه؛ فأوصى طوكتو به خيرًا. ومنذئذٍ الْتحَقَ يورين بالجيش بصفة مستشارٍ للقيادة العليا، وتحوَّل بين عشيَّة وضُحاها إلى شخصٍ مشهور، له عربته وخيوله وحرَسه الخاص.

وحين أكمَلَ طوكتو حملته ويورين في حاشيته؛ تمَّ تكليفه بمهمَّة بالقصر، وأصبح يتنقَّل بين أبهاء الأكاديمية العلمية ومكاتب الوزارات؛ أي أصبح له شأنٌ، وأي شأن!

وفي مدَّةٍ وجيزة، تنقَّل بين مناصب عليا عدَّة، وعيِّن أخيرًا مراقبًا في محكمة المراقبين. ولكنَّ أحد زملائه، ويدعى يونشي بوهوا، كان يحمل له الضغينة؛ فكاد له عند كِبار الموظفين، فأُنزل من مرتبته العليا، ليعيَّن محصِّلًا في بلدة ليزهو. واستعاد في ذاكرته كلماتِ قاضي جهنَّم: شمس، قمر، غيمة. وأحسَّ أنها ثلاثتها قد تحققتْ. وبشعورِ مَن أنذر؛ فرَضَ على نفسه سلوكًا: لا يلحقه أيُّ ضَير وتحفُّظ من كلِّ فعلٍ يجلب عليه الأذى.

وكان قد قضى عامَين في هذا المَنصِب إلى أن احتاج ذات يوم الاتصال بالإدارة المركزية. وقد قدَّم إليه أحد المُعاوِنين وثيقةً ليوقِّعها. وكان يورين على أهبة أن يفعل: «هي، محصل منطقة ليزهو.» وبينما هو يعالج الفرشاة في يده، وإذا بمجرًى هوائي يعصف بالورقة ويشوِّش من شكل الحرف الأخير في كلمة لي (رعد) ليحوله إلى ديان (بريق). ودون أن يشعُر، أعطى الأمر رأسًا بإصلاح الخطأ الطارئ.

ولكنَّه، في ليلته تلك، أُصيب بمرضٍ مفاجِئ، أدرك أنه لن يقوم منه؛ فعمد إلى ترتيب بعض شئُونه المنزلية، وودع زوجته وأولاده، ومات.

اسم تلك الفتاة أو حكاية بيجو

لي زن

اسم تلك الفتاة أو حكاية بيجو

كيونير-بيجو، هو اسمها من عائلتها وانغ، و«ريزن» هو اسمها الشخصي الاجتماعي. انتماؤها يعود إلى شانغشان.

توفِّي أبوها وهي في السنة الثانية من عمرها؛ فحملتْها أمُّها إلى أهلها، وهُم من تونغ. وحين تزوجتْ من جديدٍ برجُلٍ غنيٍّ يُدعى «شن بيجي شن»، لم يكُن له أولاد من قبل، أحبَّها أكثر ممَّا لو كانت من صُلبه.

في سنِّ الثالثة عشرة من عمرها، كانت بيجو قد بلغتْ مَدركًا كبيرًا من الثقافة والخبرة بتلحين الأغاني ووضع الأشعار المغنَّاة، وكانت إلى هذا تعرف الموسيقى جيدًا. وأخيرًا، فإنَّها في باب التقاليد الخالصة والكلام العذب والثبات واللياقة؛ لا تترك أيَّ مجال لمؤاخذتها، والكلُّ حولها يخطب ودَّها ويتطلَّع لطلبِ يدها.

في تلك الفترة، كان هناك اثنان من الطامعين إلى هذه العلاقة: الأول يدعى «كسو كونغداو»، والثاني «ليو جونيو». كان نسب «كسو» يعود إلى عائلةٍ عريقة، ولكنه كان فقيرًا ونزيهًا. أمَّا ليو فقد كان من عامَّة الناس، ممَّن حصلوا فجأةً على ثروةٍ عظيمة. كان لكسو ابنٌ يُدعى «تياولانغ»، وابنُ ليو يُدعى «هانلاو». وكلا الشابَّين كانا على تمام الأناقة والوسامة، وفضلًا عن ذلك كانا، معًا، في سنِّ بيجو.

وقد فكَّر شن بيجي بتزويج ابنته إلى ليو، ولكنَّ أصوله جعلتْه يتردَّد. في حين أنَّ تزويجها بعائلة كسو يُثير متاعب أخرى؛ بسبب الفقر المُدقِع لهذه العائلة. ولذا بقي

متردِّدًا لبعض الوقت، لا يعرف كيف يحسم اختياره. وذات يومٍ، ذهَبَ لطلب مشورةِ أحد كِبار الرأي من عُصبته؛ فأشار عليه هذا بما يلي:

«كل الأهمية ينبغي ألن تراها، في الإقدام على اختيار صهرٍ له قيمة. أمَّا الباقي فلا تشغل بالك به!»

– هذا أكيد — قال شن — ولكنْ كيف لي أن أعرف الشابَّ ذا القيمة عن غيره؟

– «أمرٌ في غاية السهولة! ليس عليك سوى أن تدعو لوليمةٍ كُبرى وتدعو إليها، بصفةٍ خاصَّة كلا الشابَّين. وتحضر أيضًا قدامى يتميَّزون بالتكتُّم، ومهمتهم مراقبتهما في السرِّ. وهكذا فإنهم أولًا: سيحكمون على طباعهما وشخصيتيهما. ثانيًا: سيُخضعانهما للامتحان للتعرُّف على مواهبهما الأدبية وثقافتهما. وعندئذٍ، فأنت تختار الأفضل لتزويجه ابنتك، وهكذا يتمُّ اختيار صهرا!» ووجَدَ شن أنَّ هذه المسطرة جِد معقولةٌ.

في منتصف الشهر، أولَمَ شن ودعا أعيان ومشاهير المنطقة؛ فحضروا جميعهم، وحضر، بالطبع، كلٌّ من جونيو وكونغدا وبرفقة ولديهما.

كان هانلاو، في تمام قيافته وعلى أدب ورِقَّة لا يخلوان من حذلقة. بينما تباولانغ، متفتِّح الوجه والمستبشر، والذي كانت كلماته منتقاةً ورقيقة، قد حضر حليقًا ومرتديًا لباسًا بسيطًا ومنطلقًا في سلوكه بلا تكلُّف.

ومن بين المدعوِّين، كان هناك شخصٌ يُدعى جنجيان، أي «حارث الغيوم»، عمدة عُصبة شن، والملقَّب: زيرن، أي «العارف بالرجال». وبمجرَّد ما وقع بصرُه على الشابَّين ميَّز دفعةً واحدة في دخيلته أيهما الأجدر. ثم إنه ما لبث أن قام وأعلن أمام الملأ: «إنَّ لابن عمي بيجي فتاةً في عُمر الزواج، والسيدان كسو وليو يريدها كلٌّ واحدٍ منهما لولده، والولدان معًا كاملان ومتميِّزان. بقي أن نعرف الآن لأيِّ واحدٍ منهما كتبت الأقدار الفتاة.» فوقف شن ليردَّ على العمدة: «هذه مسألةٌ لا يمكن أن تحلَّ سوى على يدَيك أيها العميد الجليل.» فواصل جنجيان: «كان القدماء لفضِّ مثل هذه الأمور، يحتكمون إلى إطلاق السهام بالأقواس، أو إلى خيوط الحرير، أو ... إلخ؛ لاختيار صهر ... أمَّا أنا فأقترح طريقة أخرى.»

ونادى الشابَّين أمامه وأبرز لهما أربعة رسوم كانت معلَّقة على الجدران، ومُعنوَنة كالتالي:

- أن تكون كلِفًا بزهور الربيع وتستيقظ باكرًا،
- أن تحبَّ الليالي المُقمِرة وتنام متأخِّرًا،

- أن تقطف انعكاس القمر على الماء
- وتلعب بالزهور مغمورًا بعبيرها.

«والآن أظهرا لنا بعض ما تملكان من موهبة وفِطنة، وحاولا ارتجال مقطعٍ شعريٍّ حول هذه المواضيع! إنه ما سيكون مقياسَ القبول أو الرفض!»

من سوء حظِّ هانلاو الذي ترعرع في عائلة أغنياء، ولم يسبق له أن أبان عن خللٍ في قرض الشِّعر أو التفنُّن في الخطِّ، من سوء حظِّه أن وقَفَ مُرتبِكًا لا يحار صنيعًا. وبعد طول تأمُّل، لم يتوصَّل إلى شيء. في حين أنَّ تياولانغ، أمسك بهدوءٍ ريشته، وبعد لحظاتٍ أنهى قصيدَهُ وقدَّمه إلى العميد الذي أغدق عليه بالمديح.

وأحسَّ جونيو بخجلٍ عظيم، أمام عجز ابنه الذي لم يستطع تسطير كلمة، وما لبثا أن غادرا الحفل قبل انتهائه. وأجمع باقي الحضور على أفضليَّة تياولانغ، وبالتالي أصبح الالتزام بتزويجه من بيجو مُحكمًا.

بعد شهرٍ على هذا، وقع الاختيار على يومٍ محدَّد لضبط الخطبة. ثم إنَّ شن الذي أحبَّ كثيرًا صهره للمستقبل القادم، وله رغبة في أن يتلقَّى كثيرًا زيارته، بادر إلى تخصيصه ببيتٍ لإقامته؛ حتى يتمكَّن من مواصلةِ دراسته.

وذات يوم، والسيدة تونغ طريحةُ الفِراش لعلةٍ طارئة، قصَدَها تياولانغ لاستطلاع أخبارها؛ ليلتقي صدفة مع بيجو. ولم تكن الفتاة تتوقَّع اقتحامه للمكان لحظتها، ولا أمكنها أن تتوارى لتتجنبه؛ فأُتيح له هو أن يراها وجهًا لوجه وهي عند سرير أمِّها. ولقد ميَّز واعتبر أنَّها على جمالٍ فاتن، ولقد كانت كذلك. وتراجع خارجًا، ثم سحَبَ من جيبه بطاقةً من ورقٍ أحمر، طلَبَ من إحدى الخادمات تسليمها لبيجو.

ففتحتْها هذه، لتجد أنها خلوٌ من أي كلام، وقهقهتْ ضحكًا وردَّت بهذه المقطوعة: انعكاس وجهي، هذا الورق القرمزي. ماذا دهاه؟ أيكون الفتى لهذا الحدِّ قد ابتُلي. العاشق يملك دومًا كلماتٍ نديَّة، فيما يصاب بالبكم هو، ولا يقول أهواكِ حتَّى.

ولقد استلم تياولانغ هذا القصيد، وراح يزهو به أمام هانلاو. وراح هذا الأخير المحتقن غيرةً من غريمه؛ يقصُّ الأمر على أبيه جونيو. وبدلًا من أن يؤاخذ هذا ابنه، ويحمِّله مسئُولية تقصيره في الدرس، ازداد غيظُه وحِقده من يومها على عائلتي كسو وشن. ولم يلبث أن لفَّق ضدَّهما تُهمةً مُريبة، لم تستطيعا الفكاك منها؛ فهجِّرت عائلة كسو إلى منفًى في أقصى الشمال في لياويانغ. بينما رحلت عائلة شن بكاملها، إلى مناطق حراسة الأقاليم الجنوبية.

وفي لحظات الوداع، اضطر الخطيبان للافتراق، الرُّوح مجروحة والدمع منسكِب، ولا كلمة مرسلةٌ بينهما، وكل الحضور يلوِّح بمناديل مبلولة. وافترقا، هو إلى الشمال وهي إلى الجنوب، لتنقطع الأخبار بينهما.

وبعد وقت وجيز، مات شن بيجي على حين غِرة، لتسوء أحوال العائلة من بعده، ولم يبقَ سوى السيدة تونغ وابنتها، يأويهما كوخٌ من قشٍّ وتبيعان الخمر على حافة طريق. وبسبب الفقر والتعاسة، فقدتْ بيجو نضارةَ الماضي، ولكنْ وهي في عزِّ شبابها، لم يمسَسْ جمالَها ضَير. ولقد وقعت موقعًا حسنًا في عين قائدٍ عسكريٍّ للمنطقة، يدعى ويو. أراد التزوُّج منها ليتخذها عشيقة؛ غير أن السيدة تونغ ردَّت طلَبَه متعلِّلةً بأنَّ ابنتها مخطوبة. فأوفد ويو الذي يعرف قصَّتها وكيلةً تطرح موضوعه، وقالت: «إن الشابَّ كسو في ثكنةِ لياودونغ، ولا أحد يعرف ما إن كان حيًّا أو ميتًا. وعلى افتراض أنَّ أيَّ أذًى لم يلحقه؛ كيف سيتأتَّى له أن يحضر هنا ويتزوَّج؟ ولذا بدلًا من الاحتفاظ بآمالٍ باهتة وإتلاف أشهُر بل وسنوات ثمينة؛ من الأفضل أنْ تأتيا عندي في حضن عائلةٍ سامية، يكون لكما عندها ما تشاءان، وهكذا لن يمرَّ عليكما العُمر عبثًا!»

غير أنَّ بيجو عاندت في رفضها. وجدَّد ويو طلَبَه بأنْ أرسل وسيطةً جديدة لتضغط على العجوز وابنتها عن طريق السُّلطات. وعندئذٍ انتاب الخوف السيدة تونغ؛ فمحضَت ابنتها بيجو النصيحة قائلةً: «منذ أن ذهَبَ الشابُّ كسو، انصرمتْ إلى الآن خمس سنوات. وكلُّ واحدٍ الآن في أقصى العالم «السمكة غرقتْ والبطُّ الوحشي اختفى.» كما يُقال ... وهذا الرَّجُل ذو النفوذ يريدكِ له، وهو يُرغمنا على أن نفعل، وأنا أرملة وأنتِ يتيمة؛ فبأيِّ سلاحٍ نستطيع مقاومته؟»

فأجابتْ بيجو باكيةً: «إذا كانت عائلة كسو قد ابتُليتْ بالضَّرر؛ فالواقع أنَّ هذا تمَّ بسببي. وإذا تراجعتُ الآن لأتبع شخصًا آخر، يكون هذا منِّي تنكُّرًا لالتزامٍ مقطوع ومعصيةً كاملة، والحال أنَّ ما يميِّز الإنسان عن الدوابِّ والحيوانات المتوحِّشة؛ هو امتلاكه للصدق والوفاء. وأن أطرح رابطةً قديمة لأعقد أخرى جديدة؛ فهذا معناه التخلِّي عن الصدق والاستقامة. ومَن تخلَّى عن هاتَين الخَصلتَين، فهو والكلب أو الخنزير سواءٌ. وإنني لمستعدةٌ للموت على أن أقبل بالخضوع.»

وبعد ذلك، وضعتْ مقطوعةً شعرية على إيقاع «العبير يضوع في الدار»، وليلتها شنقتْ نفسها في غُرفتها. بَيدَ أنَّ أمَّها توجَّستْ شيئًا، وهبَّت لفكِّ الحبل من حول عُنُقها، وقد لزمها وقتٌ طويل لتستعيد حيويتها.

وما إن علِمَ القائد ويو بالخبر، حتى استشاط غضبًا؛ فأرسل مشاغِبين لتكسير كلِّ ما يجِدُونه في متجر العجوز. قصَدَ كسْرَ عنادِ الأسرة وإذلالها في الفقر.

في تلك الفترة، كان هناك عجوزٌ مندوب للبريد يُدعى «دو»، مسقط رأسه هو أيضًا من شانع شان، وكانت تربطه مع شن بيجي صداقةً حميمة؛ فعطف على السيدة تونغ وابنتها، وآواهما في إحدى غُرَف رواق البريد.

وذات يوم، كان من بين المسافرين العابرين ثلاثةٌ أو أربعة من حرَّاس الحدود، نزلوا في الرواق. وقد استفسرهم السيدُ دو عن مصدر قُدومهم؛ فردَّ أحدهم: «إننا ننتسب إلى فرقة ثكنة لياودونغ، ومهمَّتنا أن نتوجَّه إلى الجنوب لإحضار قوَّاتٍ جديدة، ونرغب في التوقُّف هنا لقضاء الليلة.»

واتفق أن السيدة تونغ قد لاحظتْ، وهي متوقِّفة خلفَ السِّتار، أنَّ واحدًا من الحرَسِ يختلف عن البقيَّة كما بدا عليه من سيما النُّبل والتميُّز. وخلال حركاتٍ عديدة ذهابًا وإيابًا في القاعة، تفحَّصتْه جيدًا وتأثرتْ؛ لَما ينمُّ عن وجهه من ظِلال حُزن وألم. وفي غمرة انفعالها تقدَّمتْ إليه لتسأله: مَن تكون؟

– إنني أدعى تباولانغ، واسم عائلتي كسو، وأصولي من شانع شان. في شبابي الأول، خطَبَ لي والدي فتاةً من أُسرة شن بيجي من نفس المدينة. ولكن قبل أن يضمُّنا الزواج تورَّطتْ عائلتانا في قضيةٍ مُريبة؛ فأُرسل شن إلى أقاليم الجنوب وأنا إلى حِراسة المناطق الشمالية. وها هي عدَّة سنوات قد انصرمتْ والأخبار بيننا مقطوعة. وحين وصلنا قبل قليلٍ إلى هذا المكان، ووقعتْ عيني عليكِ أيتها السيدة الطيِّبة؛ أثارني شبَهُكِ بالمرأة التي كانت ستُصبح حماتي. ولذا، ودون انتباهٍ منِّي، استبدَّ بي الأسى. ولا شيء غير ذلك.»

وأجابت السيدة تونغ: «العائلة شن أين توجد حاليًّا؟ والفتاة ما اسمها؟»

– «اسم الفتاة بيجو. حين خُطبتْ كانت في الثالثة عشرة من عمرها؛ وبالتالي فإنَّ عمرها اليوم ثمانية عشر عامًا. غير أنني نسيتُ في أيَّة محافظةٍ يسكن أهلُها اليوم، وإنَّه لمن المستحيل أن أعثُر عليها.»

فهبَّت السيدة تونغ نحو ابنتها لتقصَّ عليها الأمر، وكمَن يهذي فرحًا أضافت: «إذا كان الأمر على ما يقول؛ فإنَّ السماء هي التي أرسلتْه!» وفي اليوم التالي دعَت المرأةُ الشابَّ إلى غرفتها؛ لتستفسر منه التفاصيل، وقد كان هو تياولانغ، بالذات والصفات! وقد أصبح يحمل الآن لقب «زلان»، وما تزوَّجَ بعدُ، ثم إنَّ السيدة تونغ انفجرتْ باكيةً وأفصحت: «إنني

حماتُك، أمَّا صِهرُك فقد مات. أمَّا أنا وابنتي فقد عانينا شتَّى المِحَن لنستمرَّ في البقاء، ولم يخطر ببالي أننا سنلتقي بعد!»

وروَت القصةَ كاملةً للسيِّد دو ولأحَدِ رِفاق تياولانغ، وقد استولتْ على الجميع، واتَّفق رأيُهم على أنَّ الخطيبَين كانا مربوطَين بأواصرَ تعود إلى وجودٍ سابق. عقِب ذلك؛ جمَعَ السيد دو مبلغًا من المال وأعدَّ حفلةَ زواجٍ لكسو وبيجو.

ومساء الزواج، أسرَّت بيجو بقلَقِها إلى تياولانغ، وأعلمتْه أنَّها غيرُ قادرةٍ على تحمُّل فِراقه؛ فواساها زوجُها ودعاها ألَّا تُثقل نفسها بالهمِّ والخوف؛ إذ إنَّ حبًّا عظيمًا يجمع بينهما، وأن ما عليها سوى الانتظار إلى السنة القادمة ليأخذها معه إلى لياودونغ، فيُصبحا سعيدَين مثل السمك في الماء، ويحميها أبدًا أبدًا!

بَيدَ أنَّ أحدَ الحرَس من رِفاق تياولانغ، وهو العريف «دنغ» وكان رجُلًا مستقيمًا سخيًّا، بادر القول: «إنَّك في أول الزواج، ولن تترك عروستك بهذه السرعة! والسفر الذي ستقوم به، ليس من الضرورة أن تشارك فيه؛ سنتكلَّف بتسليم الوثائق إلى كلِّ محافظة على حِدَة. وإذن امكثْ هنا واهتمَّ بزوجتك، وحين سنستكمل مهمَّتنا ستعود معنا إلى لياودونغ.»

وقدَّم لهم تياو عشاءً وسقاهم عِرقًا وودَّعهم، إلى لقاء. لكنَّهم في هذا التفاهُم، لم يحسبوا حساب القائد ويو! فهذا الأخير ما إنْ علِمَ بالحكاية، حتى ألقى القبض على تياولانغ وزجَّ به في قعْرِ زنزانةٍ بدعوى الهَرَب، ثم إنَّه نزل فيه ضربًا مُبرحًا حتى الموت، وخبَّأ جثَّته في فرن.

وبعد ذلك، كلَّف وكيلته بالذهاب إلى السيدة تونغ وتهديدها: «والآن وقد مات الآخر؛ فلا معنى لمواصلة التفكير فيه، ولذا سأختار يومًا مناسبًا وسأُرسل مَن يأتي بابنتكِ. فإن لم تستجيبي؛ فكوني على يقينٍ بأنَّ الهول ينتظِرُكِ!»

وأمام هذا التهديد، حفَّزَت الفتاة أمَّها كي تتظاهر بالمطاوعة. وما إن انصرفَت الوكيلة؛ حتى قالت: «إنني إن لم أمُت الآن فسأقع ضحيةَ هذا الوحش الذي سيثلم عِرضي. سأنتظر هبوط الظَّلام لأضع حدًّا لحياتي.»

في المساء نفسه، حلَّ بالبلد فجأةً فخامة المحقِّق، الناظر الإمبراطوري السيد «فيو». ونزل برواق البريد؛ ففزعت إليه بيجو طالبةً حُكم السماء والانتقام للظُّلم الذي مسَّ زوجها، مقدِّمةً شِكايةً ومُلتمسةً الإنصاف. وقد اهتمَّ الناظر بالأمر مباشرةً وأخبر السُّلطات، وبعد شهرَين أمرَتْ، هذه، بالبدء في مسطرة التحقيق ... لكنَّ أحدًا لم ينجح في العثور على الجثَّة!

وبينما كانت الاستنطاقات تتواصل؛ شُوهدت بغتةً زوبعةٌ تقوم أمام المحكمة، فألقى الناظر بهذه الملاحظة: «إنَّها رُوح المرحوم، تعرف الحقيقة. لتقُدْني إذن حيث ينبغي!»

وبعد هذا غيَّرت الزوبعة اتجاهها، وجاءت لتِقِفَ فوق رأس الناظر، ثم تقوده أمام الفُرن، وتنشر رماده، وتكشف الجثَّة!

وعاين الناظر آثار الجُروح الظاهرة، ولم يملك ويو سوى أن يُعلن اعترافه. وطلَبَ الناظر من سُلطات المحافظة تشييعَ جُثمان تياولانغ، وسارت بيجو في جنازته باكيةً، ثم ارتمتْ في حُفرةٍ مُجاوِرة للقبر. وقد صدَرَ الأمر بدفنها. وبمجرد عودة الناظر إلى القصر، روى للإمبراطور القصة؛ فأصدر أمره بأنْ توضع على قبر بيجو شاهدةً شرفية تحمل الكتابة التالية:

قبرُ زوجةٍ فاضلة ووفيَّة.

أما السيدة تونغ، فقد تلقَّتْ من السُّلطات الثيابَ والمئُونة، وبقيتْ تستفيد من رعايتها إلى أن وافاها الأجَل.

رقصةُ السيوف في السُّور الأخضر

قصة لي زن

رقصة السيوف في السور الأخضر

في عهد زيزنغ (١٣٤١–١٣٦٧م)، كان هناك طاويان (ينتميان إلى الطريقة الطاوية) يُدعَيَان: زن بنويو (العدم-الأصلي)، ووين غوكسو (الفراغ-الطبيعي). وُلدا في أماكن مجهولة، ويُقيمان مؤقَّتًا في ضيافة الأمير ويشن (وهو قوسون بوقا من العائلة المالكة المغولية). وكانا يُتقنان جيدًا فنَّ المُسايَفَة، ومتضلِّعان في فهْمِ الاستراتيجية. وكانا يلقَّبان: ونو وكايي «عباقرة الآداب والسلاح». أما الأمير، فعلى الرغم من استضافته لهما، فإنه لم يسبق له أن وقَفَ على مواهبهما. ولكنَّ وي جونمي من فانكو وحده كان مطَّلِعًا على اقتدارهما.

ذات يوم، خرج الأمير إلى إحدى نزهاته في الضواحي. وطلَبَ من الطاويَين مرافقته؛ فانتهزا فرصةَ انفرادهما به لإطلاعه على بعض الأمور: «في الوقت الراهن، يسود الإمبراطورية سلامٌ تام، وهذا وضعٍ ممتدٌّ منذ وقتٍ طويل، والوفر والرَّفاه بلغا حدًّا أقصى. وفي نظَرِ سموِّكم فإنه وقتٌ ملائم لأنْ تنام قريرَ العين، ولاتِّباع الأهواء. وأفضل انشغالٍ هو التعاطي للموسيقى والنساء والخيل، ولا داعيَ بعدَ هذا للاهتمام بأيِّ شيءٍ آخَر! لكنْ، وفي نظَرِ الخادمَين البسيطَين الواقفَين في حضرتك؛ فإنَّ هذا كلَّه مبعَثٌ لأشدِّ القلق! إنَّ الإمبراطور «شندي، توهان، تيمور» آخِرُ إمبراطور مغوليٍّ (١٣٣٣–١٣٦٧م) عجوزٍ وعنيد. والإمبراطورة «كي» هي أثيرته، صاحبة اليد المُطلَقة في كلِّ شيء. أمَّا «قاما»، «سوسوج»،

«كومنسور» فإنهنَّ يُثرن بألاعيبهنَّ من السِّحر الجنسي؛ الرِّيبة والقساوة في قلب جلالته. بينما الرِّشوة تُمارس في واضحة النهار، ومفاهيم الخير والشرِّ انقلبتْ ظَهرًا على عَقِب! والسماء من فوقنا على أشدِّ ما تكون من الغضب، دون أن يستشعر القادة شيئًا. وفي الأسفل ثمَّة الشعب مسحوقٌ بالفاقة، وهم لا يعرفون ذلك مُطلقًا. أمَّا الحكومة، فتخبط خبطَ عشواء. وفيما يتكاثر الأنذال، يتوارى خيارُ الرجال عن الأنظار. إنَّ الهلاك وشيكٌ، مثل أحمالٍ ثقيلة من الكتب مرفوعة على رأس شَعرة، والكارثة يمكن أن تنزل في أيَّة لحظة. ونحن على حافة خطرٍ مهول. ولقد قال الحكيم سوكسوان مرةً: «حين توجد بذور الفوضى دون أن تَظهَر أعراضُها؛ فإنَّ هذا هو ما يُدعى بالفوضى الوشيكة.»

إنَّ سموَّكم عضوٌ مقرَّب من العائلة المالكة، وعماد الدفاع عن منطقة يانزجي ولاهان. ومن واجبكم استدعاء الرجال الفُضلاء الأكفاء، واختيار أقوم الضُّباط لتدريب الفِرَق، واتخاذ المخزون المالي والترشيد في النفقات. وباختصارٍ، أنْ تتَّخذوا سِريًّا كلَّ ما ينبغي من الاحتياطات. وبهذه الكيفية، فإنه إذا أُخذ العشب تحت هبوب ريح الاضطرابات، وإذا ما بدأتْ أركان العالم تهتزُّ؛ يكون سموُّكم قادرًا على إعلاء راية العدالة، ومُستنفِرًا لمواجهة المُلِمَّات. وهكذا يستطيع سموُّكم من عليائه، أن يخفِّف ممَّا يحسُّ به جلالته وأبوه من أخطار المُحدِقات. ومن الأسفل، تستطيعون الوفاء بواجب الابن وعضو الرعية؛ فتذهبون إلى استرجاع أراضي الصين واستعادة التراب المفقود.

وبعد استكمال هذه المهام، يكون مطلوبًا من شخصكم؛ الانسحاب بلا ضجيج، ودون مرح في الأرض. وبالْتماسٍ لا يزيد عن العودة إلى الأراضي لحراسة جنوب الصين لأجيال وأجيال. وما أكثر الحواديث العظيمة التي ستجعل المعلِّقين والمؤرِّخين يُعمِّدون سموَّكم بالعبقرية عبقرية العائلة المالكة لسلالة يوان العظيمة، ويحفظون اسمها في السِّجلات داخل صناديق من ذهبٍ محفوفة بعزٍّ يدوم لَمَا لا يقلُّ عن عشرة آلاف عام! أوَليس هذا شأنًا عظيمًا؟ أوَليس فيه كلُّ الامتياز والفخامة؟»

غير أنَّ وقْعَ هذا الكلام كان غريبًا على مسمع الأمير، الذي عقَّب فورًا: «خبِّراني ألستُما مريضَين أوَبِتُّما أحمقَين؟ ماذا يعنيه هذا القول المبالَغ فيه؟ أُقسم لكما أنني سأحجزكما وأحيلكما إلى المحكمة!»

عند هذا التهديد، بقي الطاويان أخرسَين وتراجعا منسحِبَين، ثم تشاورا واستخلصا الآتي: «أيُّ نصحٍ يمكن أن يؤثِّر بعدُ في شخصٍ مدلَّل ومتعفِّن حتى النخاع، ومَن روحه ضائعةٌ وفِكرُه متبدِّد؟ فما المانع إذن من البحث في مكانٍ آخر عن بطلٍ نقترح عليه

خدماتنا؟ وإنَّه لجهدٌ ضائع أن يُمحَّض النُّصح لَمن هو غبي! ... وعلى كلٍّ، فإننا إذا لم نغادر من هنا، فإنَّ البلاء لنا بالمرصاد!»

وعند هذا القرار، وقبل أن يلوذا بالفرار، نقَشَا على سُور أصفر أمامهما بعض الأشعار ... كتب «العدم-الأصيل» الرباعية التالية:

مَن كان يغذِّي دومًا الآراء البديعة والأهداف النبيلة
يصير نفسه قُزْحيا، وخنجره صفيحةً لامعة
من وقْعِ فصاحةِ سوكين نسهل.
ما نحتاجه هو أن نمنح عوننا للبطل.

في حين ثنَّى «الفراغ-الطبيعي» برباعيتَين تقولان:

هل الكريم الأشمُّ ذو القَوام الحربي
يلعب دورَ المتعلِّمين المُرتشِين؟ كلَّا ذاك يقزِّزه.
وعجوزُ الصخرة الصفراء ينتظرك عند الجِسر؛
فعندك الكتاب الوحيد: «فرو التنين».
السيف القاطع الطالع من بريق ثلجي،
والنصل يحمل بعدُ آثارَ دم العدوِّ.
فأين الاقتراب؟ لنعرف أكثر.

وأنْ نعامل هذا الأمير بطلًا لهو احتقارٌ مُر. وما إن أُحيط الأمير «ويشن» بالأمر، حتى أرسل مَن يتعقَّبهما، لكنْ دون جدوى. وبعد زمن وجيز، قامت الاضطرابات وعمَّت الفتنة، بالضبط كما توقَّع ذلك الطاويان.

في سنة ١٣٥٥م من عهد زيزنغ سيطر «ني ونجن» على ميانيانغ، فواجهه «باونو» ابن الأمير ويشن، وكذا قائد قوات إقليم هونان «أصلان»، في البر والبحر للقضاء عليه. وما إن بلغا المياه العميقة حتى غرقتْ سفُنُهما؛ فأحرقها ني ونجن مستعمِلًا قذائفَ مشتعلة، وقضى باونو نَحْبه هناك.

وحين تأمَّل الأمير ويشن هذه الكوارث كلَّها، وضَعَ كلَّ إمكانياته رهنَ العثور على الطاويين، ولكنْ عبثًا.

وإذ علِمَ شن يوليانغ أن الرجلَين يوجدان في منطقة واقعة بين غواجزو وهواتغزو؛ أرسَلَ إليهما كتابًا يستضيفهما فيه بكلِّ مجامَلة، غير أنهما استنكفا عن تلبية الدعوة، واختفيا متوجِّهَين إلى سشوان.

وبين حين وآخر، أصبح «منغ يوزن» سيِّدَ سشوان. وبما أنَّه كان على علمٍ، ومنذ وقتٍ طويل، بشُهرةِ الرَّجلَين، فإنَّه انصرف جاهدًا للبحث عنهما، ولكنْ دون أن يُدرك لهما أثرًا.

وعندما أكملَت السلالة العريقة «مينغ» قمع كلِّ العُصاة والمتمرِّدين، وأصبح كلُّ ما هو واقع بين البحار الأربعة كلًّا واحدًا؛ عيَّنَ «وي جونيان»، وهو الأخ الأكبر لـ «وي جونمي»، نائبًا مساعِدًا لمحافظ كسشونغ (في إقليم سشوان)؛ فتوجَّه جونمي إذن إلى هذه المُقاطَعة للقاء أخيه. غير أنَّه، وهو في طريق العودة، كاد يَنفُق؛ إذ غرق مركبه، وانتهى كلُّ مَن معه من بحَّارة إلى بُطون الحيتان! ووجَدَه جنمي متعلِّقًا بقطعةٍ خشبية. تقاذفتْه الأمواج إلى أن ألقتْ به إلى الضِّفاف بلا متاعٍ ولا مال. وبما أنَّه كان قد احتاط لأمره بأنْ خبَّأ في حِزامه الجلديِّ بعضَ القِطَع النقديَّة؛ فإنه انصرف يبحث له عن ملجأٍ عند فلَّاحٍ مُجاوِر. طلَبَ منه نارًا لتجفيف ثيابه، واشترى منه طعامًا سدَّ به جوعه، وهو لا يدري على أيِّ شيءٍ سيَلوِي.

ولقد تفطَّن الفلَّاح العجوز أمام منطق الرَّجُل وسيماه، أنه ليس إزاءَ شخصٍ غُفْل؛ فعامله بكلِّ ما يعرف ويملك من لياقة. ثم إنه بقي عنده لبضعة أيامٍ أُخرى. وذات مرَّة، ذهَبَ للنُّزهة وإذا بالطاوِيَين يظهران قُبالته على حين غِرة، ويحيِّيانِه قائلَين: «أيها السيد «وي»، إنَّ بلواك إذن لعظيمة!» فرفع إليهما بصره، ليتعرَّف على صديقَيه القديمَين: العدم-الأصيل، والفراغ-الطبيعي ... وسرد عليهما مشاقَّه وما لحقه من بُؤس، غير أنَّهما بادرا إلى إسكاته: «لا عليك، ولا تشغل بالك بشيء.»

وعندها قاداه نحوَ مقرِّ إقامتهما المُنتصِب على جبل السُّور الأخضر؛ كانت الجدران عاليةً والمباني بديعةً، بممرَّات عميقة وغُرَفِ إقامة متباعدة، والعديد من الخادمات مصطفَّاتٌ بجانبها للخدمة. ثم ما أكثر الغناء والرقص حول هذا الجوِّ كلِّه!

وانصرف الطاويان للتَّذاكُر في شئُون الماضي مع الصديق الوافد. وكالعهد بهما، بدَت السعادةُ طافحةً من وجهَيهما. وهذا ما حدا وي إلى أن يسألهما كيف استطاعا النجاة من الفتن والاضطرابات؛ فأجابا قائلَين: «بعد أن غادرنا ضيافة الأمير، توجَّهنا إلى أحد المضايف. ومن هناك، قضينا وقتًا طويلًا مختبئَين بالسُّور الأخضر، ثم قابلنا فجأةً «روان-جي» ذي العيون الخُضر؛ فاحتفى بنا أيَّما احتفاء، بما نعجز حقًّا عن وصفه. بَيدَ أنَّ ما أجفلنا هو

أن نكون، نحن أصحاب القلب الوثَّاب، قد فقدنا كلَّ حيويتنا، وألَّا يتحقَّق لنا أيُّ مشروع؛ ففي هذا العالم يمضي الوقت سريعًا، ونحن ننسرب فيه تائهين! وهكذا فأنت ترى أننا نعيش معتزلَين في هذا المكان دون أن نفعل شيئًا؛ ممَّا يُشعِرنا بالخجل أمام صديقٍ مثلك!»

ثم إنهما طفقا يَنخُبان برفقته، ويكرعان الكأس تلوَ الكأس، وقد أخذَت الخمرة جِماع عقلهما. وإذ طفحا، فإنَّ الكلام راح يسترسل؛ استلم العدم-الأصيل القولَ أولًا: «في شئُون هذا العالم، فإنَّ كلَّ شيءٍ مصدره «زيجي»؛ أن تتعرَّف على العلامات السبَّاقة. هذه العلامات، هي البداية الأولية المحدودة للأحداث، والتي نستطيع بواسطتها توقُّع الحسن من الضَّرر. يقول كتاب التحوُّلات: «هل التعرُّف على الأعراض يعدُّ أمرًا فوق الطبيعة؟» ويقول أيضًا: «الإنسان المتميِّز هو مَن يرى الأعراض ويتصرَّف؛ إنَّه لا ينتظر حتى ينتهي النَّهار!» ويقول المعلم «زيسي»: «في كلِّ هذه الأمثلة، بهذا يتعلَّق الأمر. منذ القِدَم وإلى يومنا هذا، لم نعدمْ وجود الشخصيات البطولية، لكن هل زاد عددهم عن أصابع اليد أو أكثر بقليل، ممَّن يتعرَّف على العلامات السبَّاقة؟»

وبالنسبة إليَّ، هناك في عهد «هان»، شخصية «زنج زيفانج». إنَّ سيرته مدوَّنة في تاريخ الحوليات، ولكنْ لماذا لا نتحدَّث جميعًا عن هذه العلامات السبَّاقة؟ ذلك أنَّه من بين وزراء مؤسِّسي عَهْد هان، لا نجِدُ أكفأ من ثلاثة أبطال على رأسهم زيفانج، بطل الأبطال! لقد هلك رفيقاه فيما عاش هو طويلًا، وعرَفَ كيف ينسحب في الوقت المناسب، إلى ربعٍ صغير مفضِّلًا بعد ذلك ألَّا يكون أبدًا البادئَ بالكلام. أوه، لشدَّ ما كان فنَّانًا في استباق الأحداث! والحقيقة إنَّ هذا ما يسمَّى بالذهن الوقَّاد!» ... واستلم الفراغ-الطبيعي الكلام: «بالنسبة إليَّ، فقد وجدتُ بطَلِي الذي يُدعى «شن تونان» في عهد «سونج»؛ فخلال العهود والسلالات الخمسة حدثَت اضطرابات غير مسبوقة، ولو لم يتصدَّ لها أبطالٌ أشاوِس؛ لَمَا عُرفتْ لها نهاية. أمَّا تونان، فقد كان يترقَّب ويرى العلامات السبَّاقة والمُنذِرة للأحداث، وكان له تخطيطٌ لمشروعٍ كبير. كان في جيئةٍ وذهابٍ بين منطقة الممرَّات ويويانغ، ولم يكُن فعله هذا لغايةِ التِّيه والمغامرة. وما إن سمِعَ بأن الوريث «زاوو كيانجين» صعد على العرش؛ حتى راح يُقَهقِه طويلًا إلى أن سقَطَ من على ظَهْر حماره! ولهذا السبب قال: «إنَّ مَن هو من علامة الخنزير؛ يرتدي، من الآن، الكسوةَ الصفراء الإمبراطورية!» وإذا ما اختبرنا العبارة البسيطة «من الآن»؛ سنرى أنَّه توقَّع كلَّ شيء.

وبعد هذا، وقد غادر العالم مشمِّرًا عن ساعدَيه، عاد إلى جباله ليعيش في شكل عُثَّة بين الغيوم البِيض والزهور البريَّة وزقزقة العصافير، تمامًا كما في مشهدٍ ربيعي. وإذا

انسحَبَ في هذه الأجواء؛ لم يُعثر له بعدُ على أثرٍ. وهذا هو ما يُسمَّى بإسكان المهارة الفائقة في البلاهة المطلقة، وإخفاء الذكاء الكامل في قمة الغباء. وفي كل بلاد الصين، عرفه العهدُ الجديد من الخالدين. ولكنْ لا شيء غير ذلك! وكل ما عُرف عنه، هو أنَّه كان عُثَّة، ولا شيء غير ذلك. فمَن الذي كان قادرًا على سَبْر غَورِه؟ وبالقياس إلى زيفانج، فإنَّ تونان ليس أدنى مرتبةً، بل إنه يفوقه. وعدا هذا يقال بأنَّ البطل الذي يُدير رأسه «ويغير من سِيرته»؛ ينال الخلودَ في الحين. أليس هذا مدعاة للإيمان؟»

وقال جنمي: «سادتي، إنكم تنسون وتنمون طبعكم الجوهري في جبلٍ شهير وتزدرون الثروة والمَنصِب مثل أيِّ نافل. بَيدَ أنني لاحظتُ من الأطروحات العالية التي سمعتُ منكم؛ أنَّكم لستُم بعدُ قادرين على التخلِّي عن كلِّ جاذبية؛ فهل من الممكن ألَّا يُفسد هذا ممارسة التعبُّد؟»

فانفجر الطاويان ضحكًا وعقَّبا: «أيها السيد وي، اعتدنا أن تكون تقييماتُك من طرازٍ عالٍ. وها نحن نرى اليوم، من عجبٍ، أنها هشَّة؛ فكيف ذلك؟ ألَا فاعلمْ أنَّ التقنيات الخاصَّة بتغذية الأنفاس وحركات الدِّبَبة والطيور لتوجيه التنفُّس؛ في نُفايات ومرفوضة من الطاويين الخالدين! إنَّ ما نسمِّيه نحن بممارسة التعبُّد بعيدٌ بعيد عن كلِّ هذا.» وعندئذٍ فإنَّهما أخذاه لجولةٍ في إقامتهما التي كانت تعجُّ بالأَجْواخِ والحرير، والمذهبات واليواقيت. ووصلوا أخيرًا إلى نفقٍ في الجبل، حيث تبعثرتْ مئاتُ الجماجم. أشار إليها الطاويان قائلَين: «إنَّها كانت لأُناسٍ بلا شرف في هذا العالم، حجزناهم ونفَّذنا فيهم الموت!»

بينما استولَت الدهشة على جنمي إلى حدِّ أنَّه دلَّى لسانه، وبقي مُتدلِّيًا وقتًا قبل أنْ يسحبه!

وفي الغداة مدَّ الطاويان سماطًا بأشهى الأطباق على شرَفِ ضيفهما. قدَّمتْ خلاله فتاتان آيةٌ في الجَمال، عشرة أطباقٍ من العاج مليئة بالمجوهرات. ثم إنَّ جنمي، وقد عجز عن رفض الهدية، طفق يُهَمهِم: «نعم! نعم!» ويُجزل الشكر بلُطف. وبعدها تُبُودلَت الأنخاب حتى السُّكْر، وانطلقَت المعارضات الشِّعرية.

وفي اليوم التالي، استأذنهما جنمي بالذهاب؛ فقال الطاويان: «في أيام تانغ، كانت هناك «الخيط-الأحمر» ... والآن توجد «الخيط-الأخضر» هي مَن سيرافقك.»

وها هي ذي فتاةٌ مليحة تتقدَّم، حاملةً على ظَهرها عُلبة البامبو، وفي أعقاب الطاويين، قادتْ جنمي على طريق السُّور الأخضر.

ثم إن الرجلَين تبادلا النظراتِ وقالا لجنمي: «لا أحد يعلم متى سنلتقي من جديد. ولذا، ولهذه المناسبة، سوف نؤدِّي رقصة!»

فتحَت الخيط-الأخضر العلبة التي أخرجتْ منها أربع كُراتٍ في حجم بيضةِ الدجاجة. والحال أنها كانت سيوفًا مذكَّرة ومُؤنَّثة، فأخذها الطاويان وشرعاها، وراحا يلوِّحان بها ويرقصان. وفي لحظةٍ واحدة، ادلهمَّت الأرضُ مع السماء. اختلطَت الرياح بالغيوم. ووسط زوابع الغُبار، لم تكُن تظهر سوى خيوطٍ متقطِّعة من نُور.

بقي جنمي، الذي يرتعش من الخوف، مسمَّرًا في مكانه. ثم الْتفت جهةَ الدار، فلم يرَ إلا الفراغ والوِهاد، ولا أيَّ طريق. أحسَّ جنمي كأنَّ موسى حادَّة تحزُّ عُنقه، وأنَّه يكاد يهوي إلى الأبد.

وحين انتهَت الرقصة، كان الطاويان قد اختفيا. ووحدها الخيط-الأخضر باقيةً إلى جانب جنمي. ثم إنَّها فتحتْ كيسًا جِلديًّا، وسكبت منه خمرًا شرباها معًا. وحين حلَّ الظلام، أخذتْ جنمي وقادتْه نحو الجنوب الشرقي. وفي الليلة الثالثة، بلغا بيتًا. كلُّ ما استطاع جنمي أن يراه؛ هو الذَّهَب والمجوهرات على السرير، بينما اختفت الخيط-الأخضر. ولم يستطع أن يعرف مُطلقًا بأيِّ سِحرٍ عجيب وقَعَ كلُّ هذا.

وفي سنة ١٣٨٧م من عهد هونغو، رَوَى شان جونجكسيان، وهو صهرٌ لجنمي وموظف بالخزينة، رَوَى ذات مغامرةِ صِهره، التي توافقتْ بالضبط مع هذه الحكاية.

هنـــداوي